

تفسير المرآة الخفية

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دارالعلوم سابقاً

الجزء الثالث عشر

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

الجزء الثالث عشر

وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ، إِنَّ
رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٣)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المعنى الجملى

هذه الآية الكريمة من تمة إقرار امرأة العزيز كما اختاره أبو حيان في البحر ،
ويؤيده عطفه على ما قبله ، وقد جعلت أول الجزء الثالث عشر ، لأن تقسيم القرآن
إلى الأجزاء قد لوحظ فيه مقادير الكلم العددى دون المعانى .

الإيضاح

(وما أبرئ نفسي) أى وما أبرئ نفسي من دعوى عدم خيانتى إياه بالغيب
بعد أن وجهت إليه اقرار الذنب وقلت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن
يسجن أو عذاب أليم ، وأودعته السجن وعرف الناس خاصتهم وعامتهم ذلك ،
وكانها بذلك تريد التوصل مما كان .

(إن النفس لأماراة بالسوء) أى إن النفس البشرية لكثيرة الأمر بعمل السوء لما فيها من دواعى الشهوات الجسمية والأهواء النفسية بما ركب فيها من القوى والآلات لتحصيل الذات ، وما يوسوس الشيطان ويزينه لها من النزغات ، ومن ذلك أن حرضت زوجى على سجن يوسف وقد كان ذلك مما يسوءه ، فالعفيف النزيه لا يرضى أن يُرَنَّ بالريبة كما يسوء زوجى إذ لا يرضى أن يكون عرضه مضغة للأفواه وحديث الناس فى أنديتهم وأسمارهم .

(إلا ما رحم ربي) أى إلا نفسا رحمها ربي فضرف عنها السوء والفحشاء بعصمته كنفس يوسف عليه السلام .
ثم علل ما سلف بقوله :

(إن ربي غفور رحيم) أى إن ربي عظيم المغفرة ، فيغفر ما يعترى النفوس بمقتضى طباعها ، إذ ركب فيها الشهوات الجسمية والأهواء النفسية .

تولية يوسف رئيسا لحكومة مصر

وما وقع لإخوته معه حينئذ

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي، فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ
لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ
عَلِيمٌ (٥٥)

المعنى الجملى

بعد انتهاء التحقيق فى أمر النسوة وظهور براءة يوسف من كل سوء ، طلب الملك إحضاره إليه من السجن بعد أن وقى له بما اشترط لحبيته - فلما جاءه وسمع كلامه فهم من خوى حديثه ، ومن أمانته على مال العزيز وعرضه وحسن تصرفه ، ومن

سيرته الحسنة في السجن ، ومن علمه وفهمه في تأويله للرؤيا ، ومن حرصه على إظهار شرفه وكرامته في مسألة النسوة ما دل على أنه أهل لأن يرفع إلى أعلى المراتب ويولى أسمى المناصب ، وذلك هو ما فعله الملك لخصافة رأيه وبصره بأقدار الرجال ، ولم يصرفه عن ذلك كونه غريبا أو فقيرا أو مملوكا ، كما تشير إلى ذلك الآيتان .

الإيضاح

(وقال الملك ائتوني به أستخلصه لنفسي) أى وقال الملك أحضروه من السجن إلى بعد أن وفيت له بما طالب : أجمعه خالصا لي وموضع ثقتي فلا يشاركه أحد في إدارة ملكي ولا تكون وساطة بينه وبينى . وقد جرت عادة الملوك أن يجعلوا الأشياء النفيسة خالصة لهم دون غيرهم ، قال ابن عباس : إن الرسول أتاه فقال ألق عنك ثياب السجن والبس ثيابا جيدا فمضى إلى الملك فدعا له أهل السجن ودعا لهم وهو يومئذ ابن ثلاثين سنة ، فلما أتاه رآه غلاما حدثا ، فقال أيعلم هذا رؤياي ولم يعلمها السحرة والكهنة وأقعدته قدامه ، وقال لا تخف وألبسه طوقا من ذهب وثياب حرير وأعطاه دابة مسرجة مزينة كدابة الملك وضرب الطبل بمصر إن يوسف خليفة الملك .

(فلما كلفه قال : إنك اليوم لدينا مكين أمين) أى فأتوه به فلما كلفه وسمع ما أوجب به ، قال له إنك لدينا ذو مكانة سامية ، ومنزلة عالية ، وأمانة تامة ، فأنت غير منازع في تصرفك ، ولا متهم في أمانتك .

وفي هذا إيماء إلى أن الحوار بين المتخاطبين يظهر معارف الإنسان وأخلاقه وآدابه وجميع شمائله فيقدره من يعرف أقدار الرجال ويزنهم بفضائلهم ومزايهم .

والظاهر أن الملك كلفه مشافهة بدون ترجمان ، لأن يوسف كان قد عرف اللغة المصرية من العزير وامراته بمحادثته إياها ومع حاشية الوزير من حين قدم مصر ، ومن محادثته صاحبيه في السجن .

وقد تكون اللغة التي كان يتكلم بها يوسف لغة جده إبراهيم وأولاده وحفدته

وكانوا من العرب القحطانيين ثم تفرغت من هذه العربية الإسماعيلية فالمصرية والعبانية والسريانية ، وكان ملوك مصر وكبراء حكامها في ذلك العهد من أولئك العرب وهم الذين يسمون بالرعاة (الهكسوس) .

ويقول المؤرخون إن ملك مصر في ذلك العهد كان يسمى الوليد بن الريان .

(قال اجعلني على خزان الأرض) الخزائن واحدها خزانة وهي ما يخزن فيه غلات الأرض ونحوها ، أى قال ولئى خزان أرضك كلها وأكن مشرفا عليها لأتخذ البلاد من مجاعة مقبلة عليها تهلك الحرث والنسل .
ثم ذكر سبب طلبه فقال :

(إني حفيظ عليم) أى إني شديد الحفظ لما يخزن فيها فلا يضيع منه شيء أو يوضع في غير موضعه ، عليم بوجوده تصريفه وحسن الانتفاع به .
وقد طلب إدارة الأمور المالية لأن سياسة الملك وتتمية العمران وإقامة العدل فيه تتوقف عليها ، وقد كان مضطرا إلى تركية نفسه في ذلك حتى يثق به الملك ويركن إليه في تولية هذه المهام .

وما أضع كثيرا من الممالك الشرقية في القرون الأخيرة إلا الجهل والتقصير في النظام المالى وتدمير الثروة وحفظها في الدولة والأمة .

روى أن الملك لما كلفه وقص عليه رؤياه وعبرها له ، قال ما ترى أيها الصديق ؟ قال تزرع في سننى الخصب زرا كثيرا وتبنى الخزائن وتجمع فيها الطعام بقصبه وسنبله فإنه أبقى له ، ويكون النصب علفا للدواب ، فإذا جاءت السنون العجاف بعث ذلك فيحصل لك مال عظيم ، فقاتل الملك ومن لى بهذا ومن يجمعه ويبيعه لى ويكفينى العمل فيه ؟ قال : اجعلني على خزان الأرض إني حفيظ عليم .

وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ، نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَلَا جُرْ الْآخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٧)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه إجابة الملك له بأنه أصبح لديه مكينا أميناً وطلب يوسف منه أن يجعله على خزان الأرض يصرّفها على حسب ما يرى من التدبير والنظام والدراية والإحكام .

ذكر هنا أنه أجابه إلى مطلبه وجعله وزيراً في دولته يتصرف في شؤونها بحسن تدبيره وثاقب رأيه ، وذلك جار على سنن الله في خلقه ، فإن ينال الرياسات العليا والمناصب الرفيعة إلا من يؤتية الله من المواهب ما يجعله قادراً على ضبط الأعمال وإقامة النظام وحسن السياسة والكياسة في تصريف الأمور .

الإيضاح

(وكذلك مكنا ليوسف في الأرض يتبواً منها حيث يشاء) أى ومثل هذا التمكن الذى سلف ذكر أسبابه ومقدماته، فقد ذكرنا أن إخوة يوسف لولم يحسدوه ما ألقوه في غيابة الحب ، ولولم يلقوه لما وصل إلى عزيز مصر ، ولولم يعتقد العزيز بفراسته أمانته وصدقه لما آمنه على بيته وماله وأهله ، ولولم تراوده امرأة العزيز عن نفسه ويستعصم لما ظهرت نزاهته وعرف أمرها ، ولولم تحب في كيدها وكيد صواحباتها ما ألقى في السجن لإخفاء هذا الأمر ، ولولم يسجن لما عرفه ساقى الملك وعرف علمه وفضله وصدقه في تعبير الرؤيا ، ولولم يعرف ذلك منه الساقى ما عرفه ملك مصر ولم يجعله على خزان الأرض ، فما من حلقة من هذه السلسلة إلا كانت متممة لما بعدها ، وبإذن الله كانت سبباً للوصول إلى ما يليها ، فكلمها في بدايتها كانت شراً وخسراً وفي عاقبتها فوزاً ونصراً مبيناً ومهدت للتمكن لدى ملك مصر . فكما يمكن له في ذلك يمكن له في أرض مصر وقد جرى به مملوكاً فأصبح مالكا ذا نفوذ وأمر ونهى لا ينازعه منازع فيما يراه ويختاره وصار الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه فيما يرى بما أعده الله تعالى له من تحلية بالضرر واحتمال الشدائد ، والأمانة والعفة وحسن التصرف والتدبير للأمر .

(نصيب برحمتنا من نشاء) أى نخص برحمتنا من إعطاء الملك والرياسة والغنى والصحة ونحوها من نشاء من عبادنا بمقتضى ما وضعنا من السنن فى الأسباب النسكبية مع موافقتها للأحداث الكونية ومراعاة النظم الاجتماعية والفضائل الخلقية (ولا نضيع أجر المحسنين) أى ولا نضيع أجر من أحسنوا فى أعمالهم بشكران هذه النعم ، بل نأجرهم عليها سعادة وهناءة ، وقد بذلنا تلك النعم لمن يطلبها متى أتى الأمور من أبوابها وسار على مقتضى السنن التى وضعناها .

أما من يسيئون التصرف فيها فتصبيهم المنغصات ، وتتوالى عليهم المكدرات ، فالمسرفون لا يلبثون أن ينالهم الفقر والعُدْم ، والظالمون يثيرون أضعاف المظلومين ، وذوو الخيلاء والبطر يكونون محقرين ، ولما يصيب المحسنين الشاكرين من ذلك شىء ، وإن نالهم منه شىء يكن أهون عليهم وهم عليه أصبر .

وفى الآية إيماء إلى أنه ما أضع صبر يوسف على أذى إخوته وصبره على الحبس بسبب امرأة العزيز بل كان جزاؤه ما مكن له فى الأرض ولدى ملك مصر .

(ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون) أى إن أجر الآخرة وهو نعيمها يكون للمؤمنين المتقين ، وذلك خير لهم من أجر الدنيا لأهلها وإن بلغوا سلطان الملك ، فإن ما أعد له لأولئك ليتضاءل أمامه كل مافى الدنيا من مال وجاه وزينة ولاشبهة فى أن من يجمعون بين السعادتين يكون فضل الله عليهم أعظم ، إذا هم أعطوا حقها من الشكر وقاموا بما يجب عليهم نحو خالقهم من طاعته وترك معصيته .

روى الشيخان عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : « قال فقراء المهاجرين للنبي صلى الله عليه وسلم يارسول الله ذهب أهل الدثور (واحداه دثر بالفتح: المال الكثير) بالدرجات العلى والنعم المقيم ، قال ما ذاك ؟ قالوا يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ويتصدقون كما نتصدق ويعتقون ولا نعتق ، قال صلى الله عليه وسلم : أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم ؟ ولا يكون أحد أفضل منكم ، إلا من صنع مثلكم ؟ قالوا بلى يارسول الله قال : تسبحون وتكبرون وتحمدون

الله دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة » قال أبو صالح : فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء » .

وَجَاءَ إِخْوَةَ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٥٨)
 وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلا تَرَوْنَ
 أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (٥٩) فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ
 لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ (٦٠) قَالُوا سُبْحَانَ اللَّهِ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١)
 وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بَضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى
 أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢)

شرح المفردات

المعرفة والعرفان : معرفة الشيء بتفكير في أثره ، وضده الإنكار ، وجهزهم : أى أوقر ركائبهم بما جاءوا لأجله ، وجهاز السفر : أهبطه وما يحتاج إليه فى قطع المسافة ، ومثله جهاز الميت والعروس (بالكسر والفتح وبهما قرئ) أوفى الشيء : جعله وافيا تاما ، المنزلىن : أى المضيفين للضيوف ، تراود : أى تخادع ونستميل برفق ، لفاعلون : أى لقادرون على ذلك ، لفتيانه : أى غلمانه السكيالين ، بضاعتهم : أى التى اشتروا بها الطعام وكانت نعالا وأدما ، والبضاعة : المالى الذى يستعمل للتجارة ، والرحال : واحدها رحل : وهو ما يوضع على ظهر الدابة وفوقه متاع الراكب وغيره ، وانقلبوا : أى رجعوا .

المعنى الجملى

جاء فى سفر التكوين من التوراة أن يوسف عليه السلام حين ولى الوزارة

طفق يُعدُّ العُدَّة ويأخذ الأهبة لتنفيذ التدابير التي تبقى بها البلاد من خطر المجاعة التي جاءت في تأويل رؤياه للملك ، وكان من ذلك أن بنى الأهرام العظيمة وخرن فيها الحبوب التي استكثر منها مدة سنى الخصب السبع الأولى ، فلما جاءت السبع الشداد وعم القحط مصر وغيرها من الأقطار القريبة منها ولاسيما أقربها إليها وهي فلسطين من بلاد الشام ، واشتهر لدى أهلها ما فعله يوسف في مصر من حسن التدبير حتى كثرت فيها الغلال وأصبح يبيع ما زاد على حاجة أهلها للأقطار المجاورة لها أمر يعقوب عليه السلام أولاده أن يرحلوا إلى مصر ويأخذوا معهم ما يوجد في بلادهم من بضاعة وتقد فضة ويشترؤا به قمحا لأن المجاعة أوشكت أن تقضى عليهم فنفذوا ما أراد وكان بينهم وبين يوسف ما قصه الله علينا في كتابه الكريم .

الإيضاح

(وجاء إخوة يوسف) ممتارين حين أصاب أرض كنعان وبلاد الشام ما أصاب مصر ، وكان قد حل بال يعقوب ما حل بأهلها فدعا أبناءه ماعدا بنيامين فقال لهم يابني قد بلغني أن بمصر ملكا صالحا يبيع الطعام فتجهزوا إليه واقصدوه واشتروا منه ما تحتاجون إليه فخرجوا حتى قدموا مصر .

(فدخلوا عليه) وهو في مجلس ولايته ، لأن أمر الميرة وشراء الغلال كان بيده ورهن أمره .

(ففرهم) حين دخلوا عليه بلا تردد إذ كان عددهم وشكاهم وزبهم لا يزال عالقا بخياله لنشوئه بينهم ولاسيما ما قاساه منهم في آخر عهده بهم ، وربما كان عمال يوسف وعبيده قد سألوهم عن أمرهم قبل أن يدخلوهم عليه وأخبروه بأوصافهم والبيئة التي رحلوا منها .

(وهم له منكرون) لتسيانهم له بطول العهد ، وتغير شكله بدخوله في سن الكهولة ، ولما كان عليه من عظمة الملك وزيه وشارته ، وما كان من حاجتهم إلى بره وعطفه .

فكل أولئك مما يحول دون التثبت من معارف وجهه ، ولا سيما أنهم كانوا يظنون أنه قد هلك أو طوّحت به طوائح الأيام ، ولو كانوا قد فطنوا لبعض ملاحظه وتذكروه بها لربما عدوه مما يتشابه فيه بعض الناس ببعض العادات ، وبخاصة أنه لم يكن يدور بخلدكم أن أخاهم قد وصل إلى ذلك المركز السامى .

(ولما جهزهم بجهازهم) أى ولما أوقر ركائبهم بما جاءوا لأجله من الميرة والطعام وجهرهم بما سوى ذلك من الزاد وما يحتاج إليه المسافرون عادة على قدر طاقتهم وبيئتهم . (قال اثنتونى بأخ لكم من أبيكم) هو شقيقه بنيامين ، وسبب ذلك أن يوسف ما كان يعطى لأحد إلا حمل بعير ، وقد كان إخوته عشرة فأعطاهم عشرة أحمال فقالوا إن لنا أبا شيخاً كبيراً وأخا آخر بقى معه ، وإن أباهم لتقدم السن به وشدة حزنه لا يستطيع الحضور ، وإن أخاهم بقى فى خدمة أبيه ، ولا بد لهما من شىء من الطعام فجهز لهما بعيرين آخرين ، وقال لهم جيئوني بأخيكم لأراه .

وفى سفر التكوين أنه كان استنبأهم عن أنفسهم متذكرا لهم ، إذ عرفهم ولم يعرفوه واتهمهم بأنهم جواسيس جاءوا ليروا عورة البلاد ، فأنكروا ذلك وأخبروه خبرهم ، فقالوا نحن عبيدك اثنا عشر أخا ونحن بنو رجل واحد فى أرض كنعان ، وهذا الصغير عند أينا اليوم ، والواحد مفقود ، فقال لهم يوسف ، ذلك ما كلمتكم به قائلاً ، جواسيس أتم ، بهذا تمّتحنون ، وحيات فرعون لا تخرجون من هنا إلا بمجىء أخيك الصغير إلى هنا . فدعوا رهينا عندى وأتوتى بأخيكم من أبيكم ، فافترعوا فأصابت القرعة شمعون خلفوه عنده . ثم أمر يوسف أن تملأ أوعيتهم قمحاً وترد فضة كل واحد إلى عدله وأن يعطوا زادا للطريق ، ففعل لهم هكذا اه .

(ألا ترون أنى أوفى السكيل) أى أتمه ولا أبخسه وأزيدكم حمل بعير لأجل أخيك . (وأنا خير المنزلين) أى وأنا على هذا خير المضيفين لضيوفه ، فقد أحسن ضيافتهم وجهرهم بالزاد الكافى لهم مدة سفرهم ومن هذا يعلم أن رواية اتهامهم بالتجسس ضعيفة على كونها لاتليق بمن دون الصديق النبى وهو يعلم بطلانها ، إلا أن تكون ذريعة لغرض صحيح كاتهامهم بالسرقة .

(فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي) أى إذا عدتم تمتارون لأهلكم ولم يكن معكم منعتكم من الكيل فى بلادى فضلا عن إيفائه وإكاله الذى كان لكم بأمرى .

(وَلَا تَقْرَبُونَ) أى ولا تقربونى بدخول بلادى فضلا عن الإحسان فى الإنزال والضيافة .

وفى ذلك إيماء إلى أنهم كانوا على نية الامتياز مرة بعد أخرى ، وأن ذلك كان معلوما له عليه السلام ، والظاهر أن مافعله معهم كان بوحى ، وإلا فالنبر كان يقتضى أن يبادر إلى أبيه ويستدعيه ، ولعل الله أراد تكميل أجر يعقوب فى محنته ، وهو الفعال لما يريد فى خلقه .

(قَالُوا سُرَّادُ عَنْهُ أَبَاهُ) أى سنجتهد ونجتال على أن نزرعه من يده ونحوه عن إرادته فى إبقائه عنده إلى إرادتنا وإرادتك ، وثقتعه بإرساله معنا كما تحب .

(وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ) ذلك لا محالة ولا تتوانى فيه .

(وَقَالَ لَفَتِيَانَهُ) أى غلماناه الكياليين .

(اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فى رحالمهم) أى اجعلوا بضاعتهم التى اشتروا بها الطعام وكانت نعالا وجلودا فى أمتعتهم من حيث لا يشعرون .

(لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم) أى لىكى يعرفوا لنا حق إكرامهم بإعادتها إليهم وجعل ما أعطيناهم من الغلة مجانا بلا ثمن ، إذا هم رجعوا إلى أهلهم وفتحوا متاعهم فوجدوها فيه .

ثم علل معرفتهم للبضاعة المردودة إليهم بقوله :

(لعلهم يرجعون) إلبنا طمعا فى برنا ، فإن العوز إلى القوت من أقوى الدواعى

إلى الرجوع .

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَيْبِهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ
مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلُ ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٦٣) قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ

إِلَّا كَمَا أَمَّنْتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ؟ قَالَهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ
الرَّاحِمِينَ (٦٤)

الإيضاح

(فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل) أى قالوا حين رجوعهم إلى أبيهم إن عزيز مصر أصدر أمره بمنع الكيل لنا فى المستقبل إن لم نحضر معنا أخانا بنيامين فقال : (إن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندى) .
(فأرسل معنا أخانا نكتل) من الطعام ما نحتاج إليه بقدر عددنا ونكون قد وفينا له بما شرط علينا ، والعرب تقول كلت له الطعام إذا أعطيته ، واكتنت منه وعليه إذا أخذت منه أو توليت الكيل بنفسك .

(وإنا له لحافظون) فى ذهابه وإيابه ، فلا يناله مكروه تخافه ، وكأنهم كانوا يمتقدون أن أباهم لا بد أن يرفض إجابتهم خوفا عليه من أن يحدث له مثل ما حدث ليوسف بدافع الحسد من قبل ، فكان جوابه لهم :

(قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل) أى هل أتم صانعون به إلا كما صنعتم بأخيه من قبل ، تعيينونه عنى وتحولون بينى وبينه ، وقد قلتى مثل هذا الكلام فى يوسف إذ ضمنت حفظه وقلتى (وإنا له لحافظون) ثم ختمت فى عهدكم وكذبتم فأضعتهم يوسف ، فأنتم لا يوثق لكم بوعده ولا يطمأن منكم إلى عهد ، فما أشبه الليلة بالبارحة .

(قائله خير حافظا) أى فأنا أتوكل على الله فى حفظ بنيامين لاعلى حفظكم .
(وهو أرحم الراحمين) فأرجو أن يرحمنى بحفظه ولا يبتلىنى بفقده كما ابتلانى من قبل بفقد أخيه يوسف ، فرحمته واسعة ، وفضله عظيم .

وهذا كما ترى ، فيه ميل منه إلى الإذن والإرسال لما رأى من شدة الحاجة إلى ذلك ، ولأنه لم يرفقا بينهم وبين بنيامين من الحقد والحسد مثل ما شاهد بينهم وبين يوسف ، وفيه من التوكل على الله ما لا يخفاء فيه .

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا
مَا نَبَغِي؟ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَلْمَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ
كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلُ يَسِيرٍ (٦٥) قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ
مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ ، فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ
اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦)

شرح المفردات

المتاع : ما ينتفع به والمراد هنا وعاء الطعام ، والبضاعة : ثمن ما كانوا أعطوه من
الطعام ، ونمير أهلنا : أى نجاب لهم الميرة (بالكسر) وهى الطعام يجلبه الإنسان من
بند إلى بلد ، كيل بعير : أى حمل جبل ، فكيل بمعنى مكيل ، ويسير : أى قليل
لا يكثر على سخائه كما جاء فى قوله : « وَمَا تَلْبَثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا » أو سهل لاعسر
فيه كما فى قوله : « وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا » والموثق : العهد الموثق ، إلا أن
يحاط بكم : أى إلا أن تغلبوا على أمركم أو إلا أن تهلكوا ، فإن من يحيط به العدو
يهلك غالباً ، وكيل : أى مطلع رقيب ، فإن الموكل بالأمر يراقبه ويحفظه .

الإيضاح

(ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم) أى ولما فتحوا أوعية طعامهم
وجدوا فيها ما كان أعطوه من بضاعة ونقد ثمن لما اشتروه من الطعام ، إذ أن يوسف
أمر فتيانه أن يضعوها فى رحالهم وهم لا يعلمون ذلك .

(قالوا يا أبانا ما نبغى ؟) أى ماذا نطلب وراء ما وصفنا لك من إحسان الملك
إلينا وكرمه الذى يوجب علمنا امتثال أمره ومراجعتة فى الحوائج ، وقد كانوا حدثوا أباهم
بذلك على ما روى أنهم قالوا له إنا قدمنا على خير رجل وقد أنزلنا خير منزل

وأكرم وفادتنا ولو كان رجلا من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته ، ثم استدلوا على هذا بقولهم :

ثم أكدوا صدق كلامهم بقولهم :

(هذه بضاعتنا ردت إلينا) أى إن ما نقول فى وصفه ومزيد إحسانه ولطفه لنا من شواهد الحال ما هو دليل عليه ، فهذه بضاعتنا ردت إلينا فضلا منه بعد أن أثقل كواهلنا بعظيم مننه وجميل عطفه .

وهم بهذا يوثقون إلى أن ذلك كافى فى وجوب امتثال أمره والاتجاه إليه طلبا للمزيد من فضله ، فكل ما جئنا به على غلائه وعظم قيمته هو هبة منه وتفضل علينا . (وغير أهلنا) أى فنحن ننتفع ببضاعتنا وغير أهلنا بما تجلبه لهم من الميرة من مصر بلائمن .

(ونحفظ أخاننا) بعنايتنا جميعا به ، على أننا لا نخشى شيئا من المخاوف التى تغلبنا عليه .

(ونزداد كيل بعير) أى ونزيد على ما نأخذ لأنفسنا حمل حمل يكال لأخيئنا ، لأن يوسف كان يكيل لكل رجل حمل بعير اقتصادا فى الطعام ، فإذا حضر بنيامين زاد حماله .

(ذلك كيل يسير) أى إن حمل البعير كيل سهل لاعسر فيه على ذلك المحسن الجواد ، أو هو قليل لا يكتر على سخائه وجوده ولا يشق عليه .

(قال لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله) أى لن أرسله معكم حتى تعطونى عهدا موثقا بتأكيده بإشهاد الله عليه بالقسم به .

(لتأتنى به إلا أن يحاط بكم) أى حتى تحلفوا بالله لترجعنّ به على كل حال تعرض لكم ، إلا أن تهلكوا فيكون ذلك عندى عذرا على نحو ما جاء فى قوله : « وَأُحِيطَ بِمِثْرِهِ » وقوله : « وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ » وقد يكون المعنى - إلا أن تغلبوا على أمركم وتغلبوا فلا تقدرّون على الرجوع .

(فلما أتوه موتهم قال الله على ما نقول وكيل) أى فلما أعطوه العهد الموثق الذى اشترطه عليهم ، قال : الله شهيد على ما قاله واشترطه ، وعلى ما أجابوه به : أى إنه سبحانه رقيب عليه وأمره موكل إليه ، فهو الذى يوفق للوفاء بالوعد والصدق فيما أعطى من عهد .

وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ
وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ، إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) وَمَلَأَ دَخُلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبُوهُمْ
مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَعْتُوبَ قَضَاهَا ،
وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِمَا عَمَلْنَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨)

الإيضاح

(وقال يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة) أى وقال لهم يا بنى لا تدخلوا على هذا الوزير الكريم من باب واحد من أبواب الوصول إليه ، بل ادخلوا عليه متفرقين من أبواب متعددة ، لتروا بأعينكم ما يكون من تأثير كل طائفة منكم فى نفسه وما يظهر على أسارير وجهه وحركات عينيه حين رؤية شقيقه يدخل عليه مع طائفته إذ لا يعلم هذا إذا دخلوا عليه كلهم جماعة واحدة .

وقد يكون المراد لا تدخلوا عليه مجتمعين فيحسدكم الحاسدون أو يكيدهم الكائدون ، فإذا حل بكم مكروه خشيت أن يصيبكم جميعا .

(وما أغنى عنكم من الله من شيء) أى وما أذفع عنكم بتدبيرى من قضاء الله شيئا ، إذ لا يغنى حذر من قدير ، وهو لا يريد إلغاء الحذر بتاتا فإنه تعالى أمر به وقال « خذُوا حِذْرَكُمْ » بل يريد أن هذا التدبير إنما هو تشبث بالأسباب

العادية التي لا تؤخر إلا بإذن الله تعالى ، وأن ذلك ليس بدافع للقدربل هو استعانة بالله تعالى وهرب منه إليه .

(إن الحكم إلا لله) أى ما الحكم فى تدبير العالم ونظم الأسباب والمسببات إلا لله وحده .

(عليه توكلت) أى عليه دون غيره ، ودون حولى وقوتى اعتمدت فى كل ما آتى وأذرت .

وفى هذا إيماء إلى أن الأخذ فى الأسباب ومراعاة اتباعها لا ينافى التوكل ، وقد جاء فى الخبر « اعقلها وتوكل » .

(وعليه فليتوكل المتوكلون) لا على أمثالهم من المخلوقين ولا على أنفسهم .
فعلى كل مؤمن أن يتخذ لكل أمر يقدم على عمله العدة ويهيئ من الأسباب ما يوصل إليه على قدر طاقته ، ثم بعد ذلك يكل أمر النجاح فيه إلى الله ويطلب منه التوفيق والمعونة فى إنجازها ، فقد يكون من الأسباب ما يخفى عليه أو ما لا تصل إليه يده .

(ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم) وهى الأبواب المتفرقة .
(ما كان يفتى عنهم من الله من شىء) أى ما كان دخولهم على هذا النهج يدفع عنهم شيئاً من المكروه الذى يحول دون رجوعهم بينيامين ، ونسبتهم إلى السرقة ، وتضاعف المصيبة على يعقوب .

(إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها) أى إن يعقوب كان عليماً بأن الحذر لا يفتى من القدر ، ولكن كانت هناك حاجة تدور بخلده ، ما أراد أن يكشف بها أحداً منهم ، وهى وراء الأسباب العادية فى الاحتياط بسلامة بينيامين والعودة به ، قضاها بوصيته لأولاده من حيث لا يفتنون لها ، وهى خوفه عليهم من العين ومن أن ينالهم مكروه من قبل ذلك .

(وإنه لذو علم لما علمناه) أى لذو علم خاص به وبأمثاله من الأنبياء ، لما أعطيناه من علم الوحى وتأويل الرؤيا الصادقة ، واعتقاده أن الإنسان يجب عليه

في كل أمر يحاوله أن يتخذ له من الأسباب ما يصل به إلى غرضه ويبلغ به إلى غايته ثم يتوكل بعد ذلك على الله في تسخير ما لم يصل إليه علمه مما لا تتم المقاصد بدونه .

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أن الواجب الجمع بين أخذ العدة والسعي في تحقيق الأسباب الصحيحة الموصلة إلى المراد ، وبين الاتكال على الله وهو ما فعله يعقوب عليه السلام ، ولا يكفي تحقق الأسباب وحدها للحصول عليه .

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئَسْ
بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٩) فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ
أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَيْهَا الْعَيْرُ لَكُمْ لِسَارِقُونَ (٧٠) قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ
مَاذَا تَفْقِدُونَ ؟ (٧١) قَالُوا تَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ
وَأَنَا بِيهِ زَعِيمٌ (٧٢) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ
وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ (٧٣) قَالُوا فَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ؟ (٧٤) قَالُوا
جَزَاؤُهُ مَن وَجِدَ فِي رِحْلِهِ فهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٧٥)
فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ ، كَذَلِكَ
كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ،
نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) .

شرح المفردات

آوَى إليه : أى ضم إليه ، والابتئاس : اجتلاب البؤس والشقاء ، والسقاية
(بالكسر) وعاء يسقى به ، وبه كان يكال للناس الطعام ويقدر بكيلة مصرية $\frac{1}{3}$

من الإردب المصرى ، وهو الذى عبر عنه بصواع الملك ، وأذن مؤذن : أى نادى مناد ، من التأذين وهو تكرار الأذان والإعلام بالشيء الذى تدركه الأذن ، والعيبر : الإيل التى عليها الأحمال والمراد أحبابها ، زعيم : كقيل أجعله جزاء لمن يجيء به ، الكيد : التدبير الذى يخفى ظاهره على المتعاملين به حتى يؤدى إلى باطنه المراد منه ، ودين الملك : شرعه الذى يدين الله تعالى به .

الإيضاح

(ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه) أى لما دخلوا عليه فى مجلسه الخاص بعد دخولهم باحة القصر من حيث أمرهم أبوه ، ضم إليه أخاه الشقيق بنيامين ، وقد حصل ما كان يتوقع يعقوب أوفوق ما كان يتوقع من الحلب عليه والعناية التى خصه بها .

(قال إني أنا أخوك) يوسف الذى فقدتموه صغيرا .

(فلا تبتئس بما كانوا يعملون) أى فلا يلحقتك بعد الآن بؤس أى مكروه

ولا شدة بسبب ما كانوا يعملون من الجفاء وسوء المعاملة بحسبهم لى ولك .

روى أنهم قالوا له : هذا أخونا قد جئناك به فقال لهم أحسنتم وأصبتم وستجدون أجر ذلك عندى فأنزلهم وأكرمهم ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقى بنيامين وحده فبكى وقال لو كان أخى يوسف حيا لأجسنى معه ، فقال يوسف بقى أخوكم وحيدا ، فأجلسه معه على مائدته وجعل يؤاكله ، وقال أنتم عشرة فلينزل كل اثنين منكم بيتا (حجرة) وهذا لاثانى له فيكون معى ، فبات يوسف يضمه إليه ويشم رائحته حتى أصبح وسأله عن ولده ، فقال لى عشرة بنين اشتقت أسماءهم من اسم أخ لى هلاك فقال له : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ؟ قال من يجد أخا مثلك ؟ ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل ، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه وقال له : إني أنا أخوك الخ .

(فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية في رحل أخيه) أى لما قضى لهم حاجتهم ووفاهم كيلهم جعل الإيلاء الذى يكيل به الطعام في رحل أخيه .

وفى قوله: جعل السقاية ، إيلاء إلى أنه وضعها بيده ولم يكل ذلك إلى أحد من فتيانہ كتجهيزهم الأول والثانى لئلا يطلعوا على مكيدته .

(ثم أذن مؤذن) أى وقد افتقد فتيانہ السقاية ، لأنها الصواع الذى يكيلون به للمنتارين فلم يجدوها ، فأذن مؤذنههم بذلك أى كرر النداء به كدأب الذين ينشدون المفقود فى كل زمان ومكان قائلاً :

(أيتها العير إنكم لسارقون) أى يا أصحاب العير قد ثبت عندنا أنكم سارقون فلا ترحلوا حتى ننظر فى أمركم .

(قالوا : وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون؟) أى قال إخوة يوسف للمؤذن ومن معه : أى شىء تفقدون ، وما الذى ضل عنكم فلم تجدوه ؟ .

(قالوا نفقد صواع الملك) أى نفقد الصواع الذى عليه شارة الملك .

(ولمن جاء به حمل بعير) أى لمن أتى به حمل جبل من القمح ، وفى هذا دليل على أن عيرهم كانت الإبل لا الحير .

(وأنا به زعيم) أى قال المؤذن وأنا كفيل بحمل البعير ، أجمعه خلوانا لمن يجيء به ، سواء أكان مفقوداً أم جاء به غير سارقه .

(قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين) أى قالوا لقد علمتم بما خبرتموه من أمرنا وسيرتنا من حين مجئنا فى امتيارنا الأول وحين عودتنا إذ رددنا بضاعتنا التى ردت إلينا مع غيرها ، أننا ما جئنا لنفسد فى أرض مصر بسرقة ولا غيرها مما فيه تعدد على حقوق الناس .

(قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين) أى قال فتيان يوسف لهم : فما جزاء سارقه إن كنتم كاذبين فى جحودكم للسرق وادعائكم البراءة والنزاهة ؟

(قالوا جزاؤه من وجد في رحله) أى جزاؤه أخذ من وجد في رحله وظهر أنه هو السارق له وجعله عبدا لصاحبه ، وقوله :

(فهو جزاؤه) تقرير للحكم السابق وتأكيده بإعادته ، كما تقول حق الضيف أن يكرم فهو حقه ، والقصد من الأول إفادة الحكم ، ومن الثانى إفادة أن ذلك هو الحق الواجب فى مثل هذا ، وقد كان الحكم فى شرع يعقوب أن يسترق السارق سنة . (كذلك نجزي الظالمين) أى مثل هذا الجزاء الأوفى نجزي الظالمين للناس بسرقه أمتعتهم وأموالهم فى شريعتنا ، فنحن أشد الناس عقابا للسارق . وهذا تأكيدهم بعد تأكيدهم لثقتهم ببراءة أنفسهم .

(فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه) أى فبدأ يوسف بتفتيش أوعيتهم التى تشمل عليها رحالهم ابتعادا عن الشبهة وظن التهمة بطريق الحيلة . (ثم استخرجها من وعاء أخيه) أى ثم إنه بعد أن فرغ من تفتيش أوعيتهم فقتش وعاء أخيه فأخرج السقاية منه .

(كذلك كدنا ليوسف) أى مثل هذا الكيد والتدبير الخفى كدنا ليوسف وألهنناه إياه وأوحينا إليه أن يفعل .

ذلك أن الحكمة الإلهية اقتضت تربية إخوة يوسف وعقابهم بما فرطوا فى يوسف ، واستحقاقهم إتمام النعمة عليهم يتوقف على أخذه بطريق لا جبر فيه ولا تقتضيه شريعة الملك ، وبه يدوقون ألم فراق بنيامين ومرارته ، فيما لا لوم فيه على أحد غير أنفسهم ، وإن يكون هذا الحكم منهم إلا بتوقع شبهة السرقة على بنيامين من حيث لا يؤذيه ذلك ولا يؤلمه ، وقد أعلمه أخوه يوسف به وبغاياته . وفى هذا إيماء إلى جواز التوصل إلى الأغراض الصحيحة بما ظاهره الحيلة والمكيدة إذا لم يخالف شرعا ثابتا .

ثم علل ما صنعه الله من الكيد ليوسف بقوله :

(ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك) أى وما كان له ولا مما تبيخه أمانته

ملك مصر أن يخالف شرعه الذي فوض له الحكم به وهو لا يبيح استرقاق السارق، فما كان بالميسور له أخذ أخيه من إخوته ومنعه من الرحيل معهم إلا بحكمهم على أنفسهم بشريعة يعقوب التي تبيح ذلك .

ولما كانت هذه الوسيلة إلى تلك الغاية الشريفة منكورة على حسب الظاهر، لأنها تهمة باطلة ، وكان من شأن يوسف أن يتباعد عنها ويتحاملها إلا بوحي من الله - بين أنه فعل ذلك بإذن الله ومشيبته فقال :

(إلا أن يشاء الله) أى إنه فعل ذلك بإذن الله ووحيه ، لأنه هو الذى اخترع هذه المسكيدة .

(ترفع درجات من نشاء) أى ترفع من نشاء درجات كثيرة فى العلم والإيمان ونزيره وجوه الصواب فى بلوغ المراد ، كما رفعنا درجات يوسف على إخوته فى كل شىء . . وفى هذا إيماء إلى أن العلم أشرف المقامات ، وأعلى الدرجات .

(وفوق كل ذى علم عليم) أى وفوق كل عالم من هو أوسع إحاطة منه وأرفع درجة ، إلى أن يصل الأمر إلى من أحاط بكل شىء علما وهو فوق كل ذى علم .
وخلاصة ذلك - أن إخوة يوسف كانوا علماء إلا أن يوسف كان أعلم منهم .

قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ ، فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ، قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ (٧٧)
قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ (٧٩) .

الإيضاح

(قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) أى قال إخوة يوسف ، إن

يسرق بنيامين فقد سرق أخوه يوسف من قبل ، فالسرقة جاءت وراثه من أمهما إذ هما لا يتفردان عنا إلا بها . وفي قولهم هذا إيماء إلى أن الحسد لا يزال كامنا في قلوبهم ، لاختلاف الأمهات ، ولزيد محبة الأب لهما .

وأصح ما قيل في سرقة يوسف ما رواه ابن مردويه عن ابن عباس مرفوعا قال : سرق يوسف عليه السلام صنما لجدته أبي أمه من ذهب وفضة فكسره وألقاه في الطريق فميره بذلك إخوته .

وأخرج ابن اسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عن مجاهد قال : كان أول ما دخل على يوسف عليه السلام من البلاء فيما بلغني أن عنته وكانت أكبر ولد إسحاق عليه السلام وكانت إليها منطقة إسحاق إذ كانوا يتوارثونها باليكبر ، وكان يعقوب حين ولد له يوسف عليه السلام قد حضنته عنته فكان معها ، فلم يجب أحد شيئا من الأشياء كحبها إياه حتى إذا ترعرع ووقعت نفس يعقوب عليه السلام عليه فأتاها فقال يا أختي سلمى إلى يوسف ، فوالله ما أقدر على أن يغيب عني ساعة ، قالت : فوالله ما أنا بتاركته فدعه عندي أيما أنظر إليه لعل ذلك يسليني عنه ، فلما خرج يعقوب من عندها عمدت إلى منطقة إسحاق عليه السلام فحزمتها على يوسف عليه السلام من تحت ثيابه ، ثم قالت فقدت منطقة إسحاق فانظروا من أخذها ومن أصابها ؟ فالتفتت ثم قالت : اكشفوا أهل البيت فكشفوهم فوجدوها مع يوسف عليه السلام ، فقالت والله إنه لسلّم لي أصنع فيه ماشئت ، فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر فقال لها : أنتِ وذاك إن كان فعل فهو سلم لك ما أستطيع غير ذلك ، فأمسكته فما قدر عليه حتى ماتت .

وهذا هو الذي عناه إخوته بقولهم (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) وهذه الروايات لا يوثق بها كما لا يدل شيء منها على سرقة حقيقية .

(فأسرها يوسف في نفسه) أي فأضمر مقالتهم في نفسه ولم يجهم عنها .

(ولم يبدها لهم) أي ولم يؤاخذهم بها لا قولاً ولا فعلاً صفحا عنهم وحلما .

ثم فسر ما أسره بقوله :

(قال أنتم شر مكانا) أى لكانه قال فى نفسه أنتم شر فى مكاتكم ومزلتكم مما تعرضون به أو تفترونه ، إذ أنكم سرقتم من أيكم أحب أولاده إليه وعرضتموه للهلاك والرق ، وقتلتم لأبيكم قدأكله الذئب الخ .

(والله أعلم بما تصفون) أى والله أعلم منكم بما تصفونه به ، لأنه سبحانه هو العالم بحقائق الأشياء ، فيعلم كيف كانت سرقة الذى أحلتم سرقة عليه .

ثم أرادوا أن يستعطفوه ليطلق لهم أخاه بنيامين فيرجعوا به إلى أبيهم ، لأنه قد أخذ عليهم الميثاق بأن يردوه إليه .

(قالوا ياأيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا) طاعنا فى السن لا يكاد يستطيع فراقه

وهو علالته التى يتعملل بها عن شقيقه الهالك ، أو هو كبير القدر جدير بالرعاية كما علفت مما سلف من قصصه ومن تعلقه به .

(نخذأحدنا مكانه) أى بدله فلسنا عنده بمنزلته فى المحبة والشفقة عنده .

ثم عللوا ذلك بقولهم :

(إنا نراك من المحسنين) إلينا فى ميرتنا وضيافتنا وتجهيزنا ، فأتم إحسانك ،

فما الإنعام إلا بالإتمام ، أو المعنى إن من عادتك الإحسان مطلقا ، فأجر على عادتك ولا تغيرها ، فنحن أحق الناس بذلك .

فأجابهم عن مقاتلهم :

(قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده) أى حاش لله أن نأخذ

إلا من وجدنا الصواع عنده ، لأننا قد أخذناه بفتواكم (من وجد فى رحله فهو جزاؤه) فلا يسوغ لنا أن نخل بموجبه .

ولم يقل إلا من سرق متاعنا اتقاء للكذب ، لأنه يعلم أنه ليس بسارق .

(إنا إذا لظالمون) أى إنا إذا أخذنا غيره لظالمون من وجهين : مخالفة شرعكم

ونص فتواكم ، ومخالفة شريعة الملك .

فَلَمَّا اسْتَيْسَـأُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ
 آبَاءَكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْتَقًا مِنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ،
 فَلَنْ أُبْرِحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يُحْكَمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ
 الْحَاكِمِينَ (٨٠) أَرْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا آبَاءَنَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ
 وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَمَلْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ (٨١) وَاسْتَسْأَلَ الْقَرْيَةَ
 الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ
 لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ، إِنَّهُ
 هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَا عَلَى يُوسُفَ وَإِیْضَتَ
 عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤)

شرح المفردات

استيسأوا : أى يسأوا بأساً كاملاً ، خلصوا : انفردوا عن الناس ، نجياً : أى
 متناجين متشاورين فيما يقولون لأبيهم ، كبيرهم : أى فى الرأى والعقل وهو يهوذا ،
 وموتقا : أى عهداً يوثق به وهو حلفكم بالله ، فرطتم : قصرتم فى شأنه ولم تحفظوا
 عهد أياكم فيه ، أبرح : أفرقت ، أمراً : أى كيدا آخر ، تولى : أعرض ، والأسف :
 أشد الحزن والحسرة على ما فات ، كظيم : أى مملوء غيظاً على أولاده ممسك له فى قلبه ،
 القرية : باسم للموضع الذى يجتمع فيه الناس وللناس جميعاً ، ويستعمل فى كل واحد
 منهما قاله الراغب

الإيضاح

(فلما استيسأوا منه خلصوا نجياً) أى فلما استحکم اليأس فى أنفسهم من قبول
 العزير لشفاعتهم واستمطافهم بعد أن أقام الحججة عليهم بشرعهم وفتوأم وأنه إن فعل

غيره يكون ظالماً بمقتضى شريعتهم وشريعة ملك مصر - اعتزلوا الناس ولم يخاطبوا أحداً ، وانفردوا للمناجاة والتشاور في أمرهم .

وخلاصة ذلك - إن أولئك الإخوة العشرة بعد أن انتهى كبيرهم من استعطاف العزيز وعدم جدوى ما فعل ، غادر كل منهم رحله وانضم بعضهم إلى بعض وأدنى رأسه من رأسه وأرهنوا آذانهم للنجوى .

(قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقا من الله) أى قال كبيرهم عقلا ورأيا وهو يهودا : ألم تعلموا أيها القوم أن أباكم يعقوب قد أخذ عليكم عهد الله وميثاقه لتردته إليه إلا أن يحاط بكم ، وقد رأيتم كيف تعذر ذلك عليكم .

(ومن قبل ما فرطتم في يوسف) أى ومن قبل هذا قد قصرتم في حفظ يوسف بعد وعدهم المؤكد بحفظه ، وكيف إن أباكم قد قاسى من الحزن ما قاسى .

(فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبى أو يحكم الله لي) أى فلن أفارق أرض مصر ، حتى يأذن لي أبى بتركها والرجوع إليه وبنيامين فيها ، أو يحكم الله لي بأمر من عنده مما هو غيب في علمه ، كأن يترك العزيز لى أخى بإلهام منه تعالى أو بسبب آخر .

(وهو خير الحاكمين) لأنه لا يحكم إلا بما هو الحق والعدل ، وهو المسخر للأسباب والمقدر للأقدار .

ثم أمرهم بأن يقولوا لأبيهم ما يزيلون به التهمة عن أنفسهم قال : (ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق) صواع الملك فاسترقه وزيره العزيز القائم بالأمر في مصر عملا بشريعتنا ، إذ نحن أنبأناه بها بعد أن استنبأنا إياها . (وما شهدنا إلا بما علمنا) أى وما شهدنا عليه بالسرقه بسمع أو إشاعة أو تهمة بل ما شهدنا إلا بما علمنا إذ رأينا الصواع قد استخرج من متاعه .

(وما كنا للغيب حافظين) فنعلم أنه سيسرق حين أعطيناك الموثيق ، ولو كنا نعلم ذلك لما آتيناك العهد الموثق علينا .

(واسأل القرية التي كنا فيها) أى وأسأل أهل القرية التي كنا ننتار فيها وهى مصر، فقد اشتهر فيهم أمر هذه السرقة حتى لو سئلوا لشهدوا .

(والعير التى أقبلنا فيها) أى ولأسأل أصحاب العير الذين كانوا يمتارون معنا . ثم أكدوا صدق مقالهم بقولهم :

(وإنا لصادقون) فيما أخبرناك به ، سواء أسألت غيرنا أم لم تسأل ، إذ أن من عادتنا الصدق فلا نخبرك إلا به ولا نظنك فى مرية من هذا .

وبعد أن انتهى تعالى من سرد مقال كبيرهم عاد إلى ذكر مقال أبيهم فقال :

(قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا) أى فرجع الإخوة إلى أبيهم وقالوا له ما لقتهم كبيرهم فلم يصدقهم فيما قالوا ، بل قال لهم بل زينت لكم أنفسكم كيذا آخر فنقدتموه ، ومما يقوى ذلك عندى أنكم لقتتم هذا الرجل حكم شريعتنا وأفتيتموه به وليس ذلك من شريعتنا .

(فصبر جميل) أى فخالى على ما نالنى من فقدته صبر جميل لاجزع فيه ولاشكاية لأحد ، بل أشكو إلى الله وحده وأعلق رجائى به .

(عسى الله أن يأتينى بهم جميعا) أى أطلب من الله أن يرجع إلى يوسف وبنيامين والأخ الثالث الباقى بمصر ، وقد كان لديه إلهام بأن يوسف لم يمت وإن غاب عنه خبره .

(إنه هو العليم الحكيم) أى إنه العليم بوجدتى وفقدهم والحزن عليهم ، وله فينا حكمة بالغة وهو الحكيم فى أفعاله فيبتلى ويرفع البلاء على مقتضى سننه وحكمته فى تدبير خلقه ، وقد جرت سنته أن الشدة إذا تناهت جعل وراءها فرجا والمصيبة إذا عظمت جعل بعدها الخالص منها . كما قال (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) .

(وتولى عنهم) أى أعرض عنهم كراهة لما جاءوا به .

(وقال يا أسفا على يوسف) أى يا حزنى ويا حسرتى عليه أقبلى فهذا وقتك

والحال مقتضية لك ، فقد كنت أنتظر أن يأتوني من مصر يبشرى لقاء يوسف ،
نخاب أملى وحل محله ذهاب ابني السلى عنه ، ولم يشرك معه بنيامين بالأسف عليه ،
لأن مكان حب يوسف والرجاء فيه قد ملأ سويداء القلب وزواياه ، وحل غيره
دون ذلك .

(وابتضت عيناه من الحزن) أى أصابتها غشاوة بيضاء غطت على البصر مع
بقاء العصب الذى يدرك المبصرات سليما مفاى ، قال الدكتور عبدالعزيز إسماعيل باشا:
البيضاء المصحوب بضيق البصر غالبا معناها (الجلو كوما) والمعروف عند الاختصاصيين
فى أمراض العيون أن أهم سبب لها هو التغيرات فى الأوعية الشعرية نتيجة لأسباب
كثيرة من أهمها الاضطرابات العصبية (كما يحدث فى زيادة ضغط الدم) لاسيما الحزن
(الدكتور ملر) اه .

(فهو كظيم) أى مملوء غيظا على أولاده ، يردد حزنه فى جوفه ولا يتكلم بسوء ؛
والحزن عرض طبيعى للنفس ولا يذم شرعا إلا إذا بلغ بصاحبه أن يقول أو يفعل
ما لا يرضى الله تعالى ، ومن ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم عند موت ولده إبراهيم
وقد جعلت عيناه تدرقان فقال له عبد الرحمن بن عوف وأنت يارسول الله : « يا ابن
عوف إنها رحمة » ثم أتبعها بأخرى فقال : « إن العين تدمع والقلب يخشع ولا تقول
إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم محزونون » رواه الشيخان وغيرهما .

وفى التفسير بالمأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن داود عليه السلام
قال : يارب إن بنى إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحاق ويعقوب ، فاجملنى لهم
رابعا ، فأوحى الله إليه أن : ياداود إن إبراهيم ألقى فى النار بسببى فصبر ، وتلك بلية
لم تنلك ، وإن إسحاق بذل مهجة دمه بسببى فصبر ، وتلك بلية لم تنلك ، وإن
يعقوب أخذت منه حبيبه فابتضت عيناه من الحزن ، وتلك بلية لم تنلك » قال الحافظ
ابن كثير : وهذا حديث مرسل وفيه نكارة ، فإن الضحيج أن إسماعيل هو الذبيح اه .

قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ
 مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ
 اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦) يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ
 وَلَا تَيَاسُؤْا مِنْ رُوحِ اللَّهِ ، إِنَّهُ لَا يَيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ
 الْكَافِرُونَ (٨٧)

شرح المفردات

تفتأ: أى لا تفتأ بمعنى لا تزال ، والحرض : المرض المشفى على الهلاك ، من
 الهالكين : أى الميتين ، البث فى الأصل : إثارة الشئ وتفريقه كبث الريح التراب ،
 ثم استعمل فى إظهار ما انطوت عليه النفس من الغم أو السر ، وتحسسوا: أى تعرفوا
 أخبار يوسف بحواسكم من سمع وبصر ، والروح : التنفس ، يقال أراح الإنسان إذا
 تنفس ، ثم استعمل للفرج والتنفيس من الكرب .

الإيضاح

(قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الهالكين)
 أى قال ولد يعقوب الذين جاءوا من مصر حين قال يا أسفا على يوسف : تالله
 لا تزال تذكر يوسف وتلهج به حتى تصير بذلك إلى مرض لا تنتفع بنفسك معه
 أو تموت من الغم .

وخلاصة ذلك - إنك الآن فى بلاء شديد وتخاف أن يحصل لك ما هو أكثر
 وأقوى منه ، وهم يريدون بذلك منعه من البكاء والأسف .

فأجابهم والتمس لنفسه معذرة على الحزن :

(قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله) أى لا تلموننى وأنا لم أشك إليكم

ولا إلى أحد من الخلق حزني الذي أمضى كتابه ، فأفسيته بهذه الكلمة (يا أسفا على يوسف) بل شكوت ذلك إلى الله وحده .

(وأعلم من الله ما لاتعلمون) أي وأنا أعلم في ابتلائي بفراقه مع حسن عاقبته ما لاتعلمون ، فأعلم أنه حتى يرزق ، وأن الله يجتبيه ويتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب ، وأنتم تظنون أن يوسف قد هلك ، وأن بنيامين قد سرق فاسترق ، وتحسبون أني بحزني ساخط على قضاء الله في شيء أمضاء ولا مرد له ، وأنا أعلم أن لهذا أجلا هو بالغة ، وإني لأرى البلاء ينزل عليكم من كل جانب بذنوبكم وبتفريطكم في يوسف من قبل ، وبأخيه الذي كان يساينني عنه من بعد .

وعن ابن عباس في تفسير الآية: أنا أعلم أن رؤيا يوسف حق وأنني سأسجد له .
(يا بني اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه) أي اذهبوا إلى مصر وتعرفوا أخبارها بحواسكم من سمع وبصر حتى تكونوا على يقين من أمرها .

(ولا تياسوا من روح الله) أي لا تقنطوا من فرجه سبحانه وتنقيسه عن النفس هذا الكرب ، بما ترتاح إليه الروح ويطمئن به القلب .

(إنه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون) بقدرته وسعة رحمته ويجهلون ما لله في عبادته من حكم بالغة ولطف خفي ، فإذا لم يصلوا إلى ما يبتغون من كشف ضر أو جلب خير ينجحوا أنفسهم (انتجروا) هما وحزنا .

أما المؤمن حقا فلا تقنطه المصائب ولا الشدائد من رحمة ربه وتفرجه لكربه ، ومن ثم قال ابن عباس : إن المؤمن من الله تعالى على خير يرجوه في البلاء ويحمده في الرضاء .

فَمَا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسْنَا وَأَهْلْنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِيضَاعَةٍ
مُرْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا، إِنَّ اللَّهَ يَمْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ

(٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩)
 قَالُوا أَأَنْتَ يَا يُوسُفُ؟ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا
 إِنَّهُ مِنْ يَتَقٍ وَيَصْبِرٍ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) قَالُوا تَاللَّهِ
 لَقَدْ أَشْرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (٩١) قَالَ لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ
 الْيَوْمَ ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي
 هَذَا فَالْتَوُّهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) .

شرح المفردات

الضر: أى ضر المجاعة من الهزال والضعف ، والمزجاة الرديئة التى يدفعها التجار
 من أزرعى الشيء وزجاء: إذا دفعه برفق كما قال : «ألم تر أن الله يزرع سحاباً»
 وآشرك: أى اختارك وفضلك ، والخاطى: هو الذى يأتى بالخطيئة عمداً ، والخطىء:
 من إذا أراد الصواب صار إلى غيره ، والخطء: الذنب ، وخطأته: قلت له أخطأت ،
 ولا تثريب: أى لا لوم ولا تأنيب وترب فلان على فلان إذا عدد عليه ذنوبه ،
 ويأت بصيرا: أى يبصر بصيرا فى الحال ، أو يأت إلى وهو بصير .

الإيضاح

(فلما دخلوا عليه قالوا يأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر) أى بعد أن قبلوا وصية
 أبيهم حين قال لهم اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ، وعادوا إلى مصر - دخلوا
 على يوسف عليه السلام فقالوا له يأيها العزيز أصابنا الهزال والضعف لما نحن فيه من
 المجاعة وكثرة العيال وقلة الطعام وقد شكوا إليه رقة الحال وقلة المال وشدة الحاجة
 وغير ذلك مما يرقق القلب مع أن مقصدهم التحسس من يوسف وأخيه - ليروا

تأثير الشكوى فيه ، فإن رق قلبه لهم ذكروا ما يريدون وإلا سكتوا وقد كان أبوهم يرجح أنه هو يوسف ، فأرادوا أن يروا تأثير هذا الاستعطف فيه .
(وجئنا ببضاعة مزجاة) أى ببضاعة رديئة يحتقرها التجار ويدفعونها احتقارا لها .

(فأوف لنا الكيل) أى فآتته كما تعوذنا من جميل رعايتك وإحسانك .
(وتصدق علينا) بما تزيد على حقنا ببضاعتنا بعد أن تعمض عن ردايتها .
(إن الله يجزي المتصدقين) فيخاف ما ينفقون ويضاعف الأجر لهم .
وقد بالغوا في الضراعة والتذلل لما كانوا يريدون من تأثير ذلك في ملامح وجهه وجرس صوته ومغالبة دمه .

ثم بعد أن ذكر طريق تحسسهم ذكر رد يوسف عليهم .
(قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه) أى قال ما أعظم ما فعلتم بيوسف من قبل وبأخيه بنيامين من بعد على قرب العهد ، وما أقبح ما أقدمتم عليه ، كما يقال للمذنب هل تدري من عصيت ، وهل تعرف من خالفت .
(إذ أنتم جاهلون) قبح ما فعلتموه في حكم شرعكم ، وحقوق بر الوالدين وما يجب من رحمة القرابة والرحم .

وخلاصة ذلك - إنكم كنتم في حال يغلب عليكم فيها الجهل بهذه الحقوق وبعاقبة البغي والمعوق .

وقد يكون المراد من الجهل الطيش والنزق واتباع الهوى وطاعة الحسد والأثرة .
وقد قال لهم هذه المقالة تمهيدا ليعرفهم بنفسه ، إذ آن أن يصارحهم به بعد أن بلغ الكتاب أجله وبلغت به ونهم الأقدار غايتها ولم يبق بعد هذا إلا التصريح وتأويل رؤياه التي كانت السبب في كل ما حدث من تلك الأفاعيل .

وقد ذكر يوسف إخوته بذنوبهم تذكيرا مجملا قبل أن يتعرف إليهم بذكر

العذر وهو الجهل بقبح الذنب فى ذاته وبسوء عاقبته لتمكن نزع الشيطان من أنفسهم الأمانة بالسوء ، وقد ذكروهم بطريق سؤال العارف المتجاهل على طريق التقرير لا التقرير والتوبيخ كما يدل عليه نفي التثريب والدعاء بالمغفرة .

قال صاحب الكشاف فى تفسير الآية : أتاهم من جهة الدين وكان حلما موقفا فكلهم مستفهما عن معرفة وجه القبح الذى يجب أن يراعيه النائب ، فقال هل علمتم قبح (ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون) لا تعلمون قبحه فذلك أقدمت عليه - يعنى هل علمتم قبحه فتبتم إلى الله منه ؟ لأن علم القبح يدعو إلى الاستقباح ، والاستقباح يجر إلى التوبة ، فكان كلامه شفقة عليهم وتنصحا لهم فى الدين لامعانة ونشربا ، إشارا لحق الله على حق نفسه فى ذلك المقام الذى ينتفس فيه المكروب ، وينفث المصدور ، ويتشقى المغيظ المحنق ، ويدرك آثاره الموتور ، فله أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسحجها ، والله حصا عقولهم ما أوزنها وأرجحها اه .

كان سؤاله إياهم عما فعلوا بيوسف وأخيه وهو سؤال العارف بأمرهم فيه من البداية إلى النهاية - مصدقا لما أوحاه الله إليه حين ألوه فى غيابة الجب من قوله « وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » إذ يبعد أن يعرف هذا سواء ، فأرادوا أن يتثبتوا من ذلك ويستيقنوا به فوجهوا إليه سؤالا هو سؤال المتعجب المستغرب لما يسمع .

(قالوا أأنك لانت يوسف؟) أى قالوا من المؤكد قطعنا أنك أنت يوسف - عجبوا من أنهم يترددون عليه مدى سنتين أو أكثر وهم لا يعرفونه وهو يعرفهم ويكنم نفسه . (قال أنا يوسف) الذى ظلمتمونى غاية الظلم وقد نصرنى الله فأكرمى وأوصلنى إلىسمى المراتب ، أنا ذلك العاجز الذى أردتم قتله بالقائه فى غيابة الجب ثم صرت إلى ماترون .

(وهذا أخى) الذى فرقتم بينى وبينه وظلمتموه ثم أنعم الله عليه بما تبصرون .

(قد من الله علينا) فجمع بيننا بعد الفرقة ، وأعزنا بعد الذلة ، وآنسنا بعد الوحشة ، وخلصنا مما ابتلينا به .
وفيه إيحاء إلى أنه لا وجه لطلبكم بنيامين لأنه أخى لا أخوكم .

تفسيره

فإن قيل لم يعرف يوسف إخوته بنفسه في أول مرة ليشروا أباهم به وبما هو عليه من حسن حال وبسطة جاه فيكون في ذلك السرور كل السرور له ؟ فالجواب عن ذلك ما أجاب به ابن القيم في كتابه [الإغاثة الكبرى] قال رحمه الله : لو عرفهم بنفسه في أول مرة لم يقع الاجتماع بهم وبأبيه ذلك الموقع العظيم ولم يحل ذلك الحبل ، وهذه عادة الله في الغايات العظيمة الحميدة ، إذا أراد أن يوصل عبده إليها هيأ له أسبابا من الحزن والبلايا والمشاق ، فيكون وصوله إلى تلك الغايات بعدها كوصول أهل الجنة إليها بعد الموت وأهوال البرزخ والبعث والنشور والموقف والحساب والصراط ومقاساة تلك الأهوال والشدائد ، وكما أدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة ذلك المدخل العظيم بعد أن أخرجه الكفار ذلك المخرج ، ونصره ذلك النصر العزيز بعد أن قاسى مع أعداء الله ما قاساه . وكذلك ما فعل برسله كنوح وإبراهيم وموسى وهود وصالح وشعيب عليهم السلام .

فهو سبحانه يوصل إلى الغايات الحميدة بالأسباب التي تكرهها النفوس وتشق عليها كما قال « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » وربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سببا ما مثله سبب .

وبالجملة فالغايات الحميدة في خبايا الأسباب المكروهة الشاقة ، كما أن الغايات المكروهة في خبايا الأسباب المشتهة المستلذة ، وهذا من حين خلق الله سبحانه الجنة وحفظها بالمسكاره والنار وحفظها بالشهوات اه .

(إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين) أى إن الحق الذى نطقت به الشرائع وأرشدت إليه التجارب هو : من يتق الله فيما به أمر وعنه نهى ، ويصبر على ما أصابه من المحن وفتن الشهوات والأهواء ، فلا يستعجل الأقدار بشيء قبل أوانه ، فإن الله لا يضيع أجره فى الدنيا ثم يؤتیه أجره فى الآخرة .

وفى الآية شهادة له من ربه بأنه من المحسنين المتقين الله ، وبأن من كان مطيعا لنفسه الأمانة بالسوء ومتبعاً لنزغات الشيطان فإن عاقبته الخزى فى الدنيا والنكال فى الآخرة ، إلا من تاب وعمل صالحاً ثم اهتدى .

(قالوا تالله لقد آثرك الله علينا) أى قال إخوة يوسف له : لقد فضلك الله علينا وآثرك بالعلم والحلم والفضل .

(وإن كنا لخاطئين) أى وما كنا فى صنعنا بك وتفریقنا بينك وبين أخيك إلا متعمدين للخطيئة ، ولا عذر لنا فيها عند الله ولا عند الناس .
وبعد أن قدموا له المذرة أجابهم بالصفح عما فعلوا .

(قال لا تريب عليكم اليوم) أى لا لوم ولا تعنيف عليكم فى هذا اليوم الذى هو مظنته ، ولكن لكم عندى الصفح والعمو . وهو إذالم يثرب أول لقائه واشتعال ناره ، فبعده أولى .

وقال السيد المرتضى : إن كلمة (اليوم) موضوعة موضع الزمان كله كقوله :

اليوم يرحمنا من كان يغبطنا واليوم نتبع من كانوا لنا تبعاً

كأنه أريد بعد اليوم اه .

(يعفو الله لكم وهو أرحم الراحمين) أى يعفو الله لكم عن ذنوبكم وظالمكم ويستره عليكم ، وهو أرحم الراحمين لمن أقلع عن ذنبه وأتاب إلى طاعته بالتوبة من معصيته .

وقد تمثل النبى صلى الله عليه وسلم بالآية يوم فتح مكة حين طاف بالبيت وصلى ركعتين ، ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتي الباب وقال : « ماذا تظنون أنى

فاعل بكم؟ قالوا نظن خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: وأنا أقول كما قال أخى يوسف (لَا تَحْزَبْ عَلَيْنَا الْيَوْمَ)، فخرجوا كأنما نشروا من القبور». أخرجه ابن مردويه عن ابن عباس والبيهقي عن أبي هريرة. روى أن يوسف عليه السلام لما عرف نفسه إخوته سألمهم عن أيهم فقالوا ذهب بصره فعند ذلك أعطاهم قميصه وقال:

(اذهبوا بقميصي هذا) الذى على بدنى أو يبدى. (فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا) أى ألقوه على وجهه حين وصولكم إليه دون تأخير يصر بصيرا، وقد علم هذا إما بوحى من الله، وإما لأنه علم أن أباه ما أصابه ما أصابه إلا من كثرة البكاء وضيق النفس فإذا ألقى عليه قميصه شرح صدره وسر أعظم السرور، وقوى بصره وزالت منه هذه العشاوة التى رانت عليه، والقوانين الطيبة تؤيد هذا، كما سيأتى بعد.

(وانتوني بأهلكم أجمعين) من الرجال والنساء والذرائى وغيرهم، وقد روى أن أهله كانوا سبعين رجلا وامرأة وولدا.

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ (٩٤) قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ، قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٩٦) قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨).

شرح المفردات

يقال فصل عن البلاد: إذا انفصل وجاوز حيطانه، وتفندون: أى تنسبونى إلى

الفقد؛ وهو فساد الرأى وضعف العقل والخرف من الكبر، فى ضلالك : أى فى خطئك
أوفى إفراطك فى حبه والإصرار على اللهج به ، وارتد : أى رجع .

الإيضاح

(ولما فصلت العير قال أبوم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون) أى ولما
انفصلت عير بنى يعقوب عن حدود مصر قافلة إلى أرض الشام ، قال أبوم لمن حضره
من حفدته ومن غيرهم : إني لأشم رائحة يوسف كما عرقها فى صغره ، لولا أن تنسبونى
إلى ضعف الرأى وفساد العقل وخرف الكبر ، لصدقتمونى فى أنى أجد رائحته
حقيقة وأنه حتى قد قرب موعد لقائه والتمتع برؤيته .

وروى عن ابن عباس أنه لما خرجت العير هاجت ريح نجاءت يعقوب بريح
قيص يوسف ، قال إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون ، فوجد ريحه من ثمانية
أيام : وفى رواية من ثمانين فرسخاً ، والمراد من مسافات بعيدة جدا .

(قالوا تالله إنك لفى ضلالك القديم) أى قال حاضر ومجلسه : تالله إنك
لفى خطئك الذى طال أمده باعتقادك أن يوسف حتى يرجى لقاءه وقد قرب .

ولا غرو فلاحلى أن يقول فى الشجى ما شاء ، فأذنه عن العذل صاء

سلوتى عنكم احتمال بعيد واقتضاحى بكم ضلال قديم

كل من يدعى الحجة فيكم ثم يخشى اللام فهو مليم

قال قتادة فى تفسيرها : تالله إنك لفى ضلالك القديم أى من حب يوسف
لأنساه ولا تسأله اه ، قالوا لوالدم كلمة غليظة لم يكن ينبغى لهم أن يقولوها له .

(فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا) أى فلما جاء البشير وهو ابنه

يهودا الذى يحمل القميص من يوسف (وهو الذى حمل إليه قيصه اللطخ بالدم

الكذب) ليمحو السيئة بالحسنة ، ألقاه على وجه يعقوب فعاد من فوره بصيرا كما

كان - بل قد قيل إنه عادت إليه سائر قواه ، وليس ذلك بعجيب ولا منكر ، فكثيرا ما شفى السرور من الأمراض وجدد قوى الأبدان والأرواح ، والتجارب وقوانين الطب شاهد صدق على صحة ذلك . قال الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا : لا تتحسن أعراض مرض (الجولوكوما) أو شدة توتر العين أو تقف شدته إلا بالعلاج ، ومنه العمليات الجراحية ، ولكن شفاء سيدنا يعقوب بوضع القميص على وجهه هو معجزة من المعجزات الخارجة عن قدرة الإنسان ، وليس المهم هو القميص أو وضعه على وجهه ، فقد كان ذلك لتسهيل وقع المعجزة على الحاضرين فحسب ، ولكن المهم هو طريقة الشفاء وهي إرادة الله المنحصرة في (كن فيكون) وهي خارجة عن كل السنن الطبيعية التي أمر الإنسان أن يتعلمها ، فمظنة المعجزة ليست في النتيجة فحسب ولكن في طريق الشفاء - وما أعظم إعجاز القرآن الذي وصف حالة مرضية خاصة وبين سببها ، ولم يكن يعلم العالم شيئا عن هذا المرض في ذلك الوقت ولا بعده بزمن طويل اهـ .

وقد أجاب يعقوب من لاموه بما كان عليه من علم قطعي من ربه بصدق مايقول .
 (قال ألم أقل لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون ؟) أى قال لهم : ألم أقل لكم حين أرسلتكم إلى مصر وأمرتكم بالتحسس ونهيتكم عن اليأس من روح الله : إني أعلم بوحى الله لامن خطرات الأوهام ما لا تعلمون من حياة يوسف عليه السلام - وقد ذكرهم الآن إذ عاد بصيرا بما كان قد قاله لهم حين ابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم .

نبذة في تعليل شتم يعقوب رائحة يوسف

أثبت العلم حديثاً أن الريح تحمل الغبار وما فيه من قارة إلى أخرى ، فتحمله من إفريقيا مثلاً إلى أوروبا وهي مسافة أبعد مما بين مصر وأرض كنعان من بلاد الشام وهي بلا شك تحمل رائحة ماله منها رائحة ، ولكن الغريب شتم البشر لها من المسافات البعيدة ، والإنسان إذا قيس بغيره من الوحوش والحشرات كان أضعف منها شتماً ، فالكلب ذو حاسة قوية في الشم حتى ليدر به الآن رجال الشرطة ويستخدمونه في حوادث الإجرام من قتل وسرقة لإثبات التهمة على المجرمين ، فيأتون بالكلب المعلم فيشم المجرم ويخرجه من بين أشخاص كثيرين ، ويرى ذلك رجال القانون دليلاً قوياً على إثبات الجريمة على من يرشد إليه ، بل دليلاً قاطعاً في بعض الدول . والروائح منها القوى والضعيف ، ومن أضعفها رائحة جسم الإنسان وعرقه وما يصاب ثوبه منها ، ولكن ما نحن فيه من خوارق العادات ومن خواص عالم الغيب لامن السنن العادية والحوادث التي تتكرر من البشر .

وقد دلت الآية على أن يعقوب عليه السلام أخبر أنه وجد رائحة يوسف لما فصلت العير من أرض مصر ، فعلمنا أن نؤمن به لأنه معصوم من الكذب ، وقد تبين صدقه بعد ، وليس بالواجب علينا أن نعرف كنهه أو نصل إلى معرفة سببه ، ولكن إذا نحن قلنا إنه لشدة تفكره في أمر ولده وتذكره لرائحته حين كان يضمه ويشمه - شعر بتلك الرائحة قد عادت له سيرتها الأولى - لم يكن ذلك مجانباً للصواب ولا معارضاً للعقل ولا ناقضاً لما يثبتته العلم ، أو قلنا بأنا نتقبل هذا بدون تعليل ولا تصوير لكيفية ذلك - لم نبعد عن العقل ولا عن العلم ، إذ لا خلاف بين العلماء في أن ما يجمله الباحثون أضعاف ما يعرفونه .

وعلى الجملة فعلمنا التسليم بما أخبر به دون حاجة للبحث في كنهه أو صفته مادام ذلك داخلاً في حيز الإمكان .

(قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين) أى قال أولاده وكانوا قد وصلوا إثر البشير . يا أبانا أسأل الله أن يغفر لنا ذنوبنا التى اجترحناها من عقوبك وإيذاء أخويننا ، إنا كنا متعمدين لهذه الخطيئة ، عاصين لله ، ظانين أن نكون بعدها قوما صالحين .

الآن اعترفوا بذنوبهم كما اعترفوا ليوسف من قبل ، لكن يوسف بادر إلى الاستغفار لهم وهم لم يطلبوه منه ، وعليك أن تسمع جواب أبيهم الآتى :

(قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم) وعندهم بالاستغفار لهم فى مستأنف الزمان ، وعلل هذا بأن ربه واسع المغفرة والرحمة ، لا ينقطع رجاء المؤمن فيها وإن ظلم وأساء .

والفارق بين جواب يعقوب وجواب يوسف من وجوه كثيرة اقتضتها الحكمة :

(١) إن حال أبيهم معهم حال الربى المرشد للمذنب ، لأحال المنتقم الذى يخشى أذاه ، وليس من حسن التربية ولا من طرق التهذيب أن يريهم أن ذنبهم هين لديه حتى يعجل بإجابة مطلبهم بالاستغفار لهم .

(٢) إن ذنبهم لم يكن موجها إليه مباشرة ، بل موجه إلى يوسف وأخيه ، ثم إليه بالتبع والززوم ، إلى أنه ليس من العدل أن يستغفر لهم إلا بعد أن يعلم حالهم مع يوسف وأخيه ، ولم يكن يعقوب قد علم بعقوب يوسف عنهم واستغفاره لهم .

(٣) إن هذا ذنب كبير وإثم عظيم طال عليه الأمد وحدثت منه أضرار نفسية وخلقية وأعمال كان لها خطرهما ، فلا يمتحن إلا بتوبة نصوح تبحث الجذور التى علقت بالأنفس والأرجاس التى باضت وأفرخت فيها .

فلا يحسن بعدئذ من الربى الحكيم أن يسارع إلى الاستغفار لمقترفها عقب طلبه حتى كأنها من هينات الأمور التى تغفر ببادرة من الندم ، ومن ثم تلبث فى الاستغفار لهم إلى أجل ليعلمهم عظيم جرمهم وأعلمهم بأنه سوف يتوجه إلى ربه ويطلب لهم الغفران منه بفضله ورحمته .

(٤) إن حال يوسف معهم كان حال القادر بل المالك القاهر مع مسيء ضعيف لديه ، عظم جرمه عليه ، فلم يشأ أن يكون الغفران بشفاعته ودعائه ، فأمنهم من خوف الانتقام تعجيلا للسرور بالنعمة الجديدة التي جعل الله أمرها بين يديه ، وليروا ويرى الناس فضل العفو عند القدرة ، وليكون لهم في ذلك أحسن الأسوة ، وفي هذا من ضرور التربية أكبر العظة والعبرة ، ولو آخر المغفرة لكانوا في وجل مما سيحل بهم ولخافوا شر الانتقام ، فكانوا في قلق دائم وتبليبل بال واضطراب نفس فكانت معرفتهم له عذابا فوق العذاب الذي هم فيه ، ولكن شاءت رحمته بهم أن يجعل السرور عاما والحياة الجديدة حافلة بالاطمئنان وقرّة العين ، وهكذا شاءت الأقدار وشاء الله أن يكون ذلك وهو العليم الحكيم .

تأويل رؤيا يوسف من قبل

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبْوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) وَرَفَعَ أَبْوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ، وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ، إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) .

شرح المفردات

آوى إليه أبويه : أى ضمهما إليه واعتنتهما ، ورفع أبويه : أى أصددهما ، والعرش كرسى تدبير الملك لا كل سرير يجلس عليه الملك وخروا له سجدا : أى أهوى أبواه

وإخوته إلى الأرض وخرأوله سجدا ، تأويل رؤياي : أى مآلها وعاقبها ، وأصل النزغ : نخس الرائض الفرس بالمهماز لإزعاجه للجري ، ثم قيل نزغه الشيطان كأنه نخسه ليحثه على المعاصي ، ونزغ بين الناس : أفسد بينهم بالحث على الشر .

المعنى الجملى

بعد أن أخبر فيما سلف أن يوسف قال لإخوته ائتوني بأهلكم أجمعين - أخبر هنا أنهم رحلوا من بلاد كنعان فأصدين بلاد مصر ، فلما أخبر يوسف بقرب مجيئهم خرج للقاءهم ، وأمر الملك أمراءه وأكابر دولته بالخروج معه للقاء نبي الله يعقوب عليه السلام .

الإيضاح

(فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه) فى العبارة حذف وإيجاز يفهم من سياق الكلام والمعنى - بعد أن ذهب إخوة يوسف إلى أبيهم وأخبروه بمكانة يوسف فى مصر وأنه الحاكم المفوض المستقل فى أمرها - أبلغوه أنه يدعوهم كلهم للإقامة معه فيها والتمتع بحضارتها فرحلوا حتى بلغوها - ولما دخلوا على يوسف وكان قد استقبلهم فى الطريق فى جمع حافل احتفاء بهم ضم إليه أبويه واعتنقهما .

وظاهر الآية يدل على أن أمه كانت لاتزال حية ورجحه ابن جرير ، وقال جمع من المفسرين إن المراد بأبويه أبوه وخالته ، لأن أمه قد ماتت قبل ذلك فتزوج أبوه خالته .

(وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) أى وقال لهم ادخلوا بلاد مصر إن شاء الله آمنين على أنفسكم وأنعامكم من الجوع والهلاك ، فإن سنى القحط كانت لاتزال باقية ، وذكر المشيئة فى كلامه للتبرؤ من مشيئته وحوله وقوته إلى مشيئة الله الذى سخر ذلك لهم وسخر ملك مصر وأهلها له ثم لهم ، وهذا من شأن المؤمنين ولا سيما الأنبياء والصديقون .

وفي سفر التكوين من التوراة أن يوسف عليه السلام عرف نفسه إلى إخوته عقب مجيئهم بينيامين شقيقه وأرسلهم لاستحضار أبيه وأهلهم ، فجاءوا فأقطعهم أرض جاسان (إقليم الشرقية الآن) وأرسل إليهم العربات لتحملهم وأحمال الغذاء والثياب على الحمير ، فلما وصلوا إليها شد يوسف على مركبته وصعد ليلاقى إسرائيل أباه في جاسان ، فلما ظهر له ألقى بنفسه على عنقه وبكى طويلا ، ثم استأذنهم ليذهب إلى فرعون ويخبره بمجيئهم ومكانهم فيقرهم عليه ، لأنهم رعاة وأرض جاسان خصبة ففعل ، ثم أخذ وفدًا منهم لمقابلة فرعون وأدخل أباه عليه فبارك فرعون .

ومن هذا يتبين أن هذا اللقاء كان هو الأول لهم ، وبعد لقاء فرعون قال لهم ادخلوا مصر ثم عاد بهم إلى قصره الخاص .

(ورفع أبيوه على العرش) أى أضعده أبيوه إلى السرير الذى كان يجلس عليه لتدبير أمر الملك تكريمة لهما فوق ما فعله بالإخوة .

(وخرؤا له سجدا) أى أهوى أبواه وإخوته وخرؤا له سجودا ، وكان ذلك تحية الملوك والعظماء فى عهدهم ، ومن ثم سجد يعقوب لأخيه عيسو حين تلاقيا بعد تفرق .

والسجود ليس عبادة بذاته ، وإنما يكون كذلك بالنية والتزام الصفة الشرعية فيه .

(وقال يآبت هذا تأويل رؤياى من قبل) أى هذا السجود منك ومن إخوتى الأحد عشر هو المآل والعاقبة التى آلت إليها رؤياى التى رأيتها من قبل فى صغرى « **إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ** » .

(قد جعلها ربى حقا) أى قد جعلها ربى حقيقة واقعة واستبان أنها لم تكن أضغاث أحلام ، قال الكواكب الأحد عشر مثال إخوتى الأحد عشر ، وأنت وأمى مثال الشمس والقمر ، ولا بدع فى ذلك فهذه الأسرة هى التى حفظ الله بها ذرية إسحاق بن إبراهيم لتنتشر دين التوحيد بين العالمين فكانت خير أسر البشر جميعا .

(وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو) أى وقد أحسن بي ربى إذ أخرجني من السجن وسما بي إلى عرش الملك ، وجاء بكم من البادية حيث كنتم تعيشون فى شطف العيش وخشونته ، ونقلكم إلى الحضرة حيث تعيشون فى نعم الاجتماع ونشر الدين الحق ، وتعاونون على ترقى العلوم والصناعات . ولم يذكر له إخراجهم من الجب لوجوه :

(١) إنه ذكر آخر الحن المتصلة بنهاية النعم .
 (٢) إنه لو ذكر حادث الجب لكان فى ذلك تزييب لإخوته وقد قال (لا تزييب عليكم اليوم) .

(٣) إنه بعد خروجه منه صار عبدا لملك .
 (٤) إنه بعد خروجه منه وقع فى مضارّة تهمة المرأة التى بسببها دخل السجن .
 وعلى الجملة فالنعم الكاملة إما حصلت بعد خروجه من السجن .
 (من بعد أن نزع الشيطان بينى وبين إخوتى) أى من بعد أن أفسد الشيطان ما بينى وبين إخوتى من عاطفة الأخوة ، وقطع ما بيننا من وشيجة الرحم ، وهيج الحسد والشر .

(إن ربى لطيف لما يشاء) أى إن ربى عالم بدقائق الأمور رفيق بعباده ، فينفذ ما يشاء فى خلقه بحكمته البالغة ، فمن ذا الذى كان يدور بخلده أن الإلقاء فى الجب يعقبه الرق ، ويتلو الرق فتنة العشق ، ومن أجله يزوج فى غيابات السجن ، ومن ذا إلى السيادة والملك .

(إنه هو العليم الحكيم) أى إنه هو العليم بمصالح عباده فلا تخفى عليه مبادئ الأمور وغايتها ، الحكيم الذى يفعل الأمور على وجه الحكمة والمصلحة ، فيجازى الذين أحسنوا بالحسنى ، ويجعل العقاب للمتقين .

وبعد أن حمد يوسف ربه على لطفه فى مشيئته وعلمه وحكمته - تلا ذلك بالدعاء فقال :

طلب يوسف من ربه حسن الخاتمة

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَآيِي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي
بِالصَّالِحِينَ (١٠١) .

الإيضاح

(رب قد آتيتنى من الملك) أى قال يوسف بعد ما جمع الله له أبويه وإخوته ،
وبسط عليه من الدنيا ما بسط من الكرامة ، ومكن له فى الأرض : رب قد آتيتنى
ملك مصر وجعلتنى متصرفا فيها بالفعل وإن كان لغيرى بالاسم ، ولم يكن لى فيها
حاسد ولا باع إذ أجريت الأمور على سنن العدل ووفق الحكمة والسداد .
(وعلمتنى من تأويل الأحاديث) أى وعلمتنى ما أعبر به عن مآل الحوادث
ومصادق الرؤى الصحيحة فتقع كما قلت وأخبرت .

(فاطر السموات والأرض) أى مبدعهما وخالقهما .

(أنت ولى فى الدنيا والآخرة) أى أنت متولى أمورى ومتكفل بها ، وأنت
موال لى وناصرى على من عادانى وأرادنى بسوء وإن نعمك لتعمرنى فى الدنيا ،
وسأتمتع بها بفضلك ورحمتك فى الآخرة ، ولا حول لى فى شىء منهما ولا قوة .

(توفى مساماً) أى اقبضنى إليك مساماً ، وأتم لى وصية أبائى وأجدادى .

« وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ: يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ
إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ » .

(وألحقتنى بالصالحين) أى وألحقتنى بصالح آبائى إبراهيم وإسحاق ومن قبلهم

من أنبيائك ورسلك ، واحشرنى فى زمرتهم ، وهذا الدعاء بمعنى ما جاء فى سورة الفاتحة « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ » أى من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين .

فى ذكر هذا القصص إثبات لنبوة محمد عليه السلام

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢) وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤) .

الإيضاح

(ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك) أى إن نبأ يوسف ووالده يعقوب وإخوته وكيف مكن ليوسف فى الأرض وجعل له العاقبة والنصر وآتاه الملك والحكمة فساس ملكا عظيما وأحسن إدارته وتنظيمه وكان خير قدوة للناس فى جميع ما دخل فيه من أطوار الحياة ، بعد أن أرادوا به السوء والمهلك حين عزموا أن يجعلوه فى غيابة الجب - كل ذلك من أخبار الغيب الذى لم تشاهده ولم تره ، ولكننا نوحيه إليك لنثبت به قؤادك ، فتصبر على ما نالك من الأذى من قومك ، ولتعلم أن من قبلك من الرسل لما صبروا على ما نالهم فى سبيل الله ، وأعرضوا عن الجاهلين فازوا بالظفر وأيدوا بالنصر وغلبوا أعداءهم .

ثم أقام الدليل على كونه من الغيب بقوله :

(وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون) أى وما كنت حاضرا عندهم ولا مشاهدا حين صحت عزائمهم على أن يلقوا يوسف فى غيابة الجب ، يبغون بذلك هلاكه والخلاص منه ، وهذا كقوله تعالى بعد سياق موسى « وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ

الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا» الآية، وقوله في هذه القصة « وَمَا كُنْتَ نَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا » الآية .

وخلاصة هذا - إن الله أطلع رسوله على أنباء ما سبق ليكون فيها عبرة للناس في دينهم ودنياهم ، ومع هذا ما آمن أكثرهم ، ومن ثم قال :
(وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) أى وما أكثر مشركى قومك ولو حرصت على أن يؤمنوا بك ويتبعوا ما جئتهم به من عند ربك - بمصدقيك ولا متبعيك .

قال الرازى : إن كفار قريش وجماعة من اليهود طلبوا ذكر هذه القصة من رسول الله صلى الله عليه وسلم على سبيل التعمت ، فلما ذكرها أصروا على كفرهم فنزلت هذه الآية ، وكأنه إشارة إلى ما ذكره الله تعالى في قوله « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » .

(وما تسألهم عليه من أجر) أى وما تسأل هؤلاء الذين ينكرون نبوتك على ما تدعوهم إليه من إخلاص العبادة لربك وطاعته وترك عبادة الأصنام والأوثان من أجر وجزاء منهم ، بل ثوابك وأجر عملك على الله .

والخلاصة - إنك لا تسألهم على ذلك مالا ولا منفعة فيقولوا إنما تريد بدعائك إيانا إلى اتباعك أن نزل لك عن أموالنا إذا سألتنا عن ذلك ، فمالك حال من سبقك من الرسل ، فهم لم يسألوا أقوامهم أجرا على التبليغ والهدى ، والقرآن ملء بنحو هذا كما في سورتي هود والشعراء وغيرها .

وإذا كنت لا تسألهم على ذلك أجرا فقد كان حقا عليهم أن يعملوا أنك إنما تدعوهم إليه اتباعا لأمر ربك ونصيحة منك لهم .

(إن هو إلا ذكر للعالمين) أى هذا الذى أرسلك به ربك تذكير وموعظة لإرشاد العالمين كافة لا لهم خاصة ، وبه يهتدون وينجون في الدنيا والآخرة .

وفي الآية إيماء إلى عموم رسالته صلى الله عليه وسلم .

وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا
 مُعْرِضُونَ (١٠٥) وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦)
 أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً
 وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧)

شرح المفردات

وكأين : بمعنى كثير ، والآية هنا: الدليل الذي يرشد إلى وجود الصانع ووحده
 وكال علمه وقدرته ، يمررون عليها : يشاهدونها ، معرضون : أى لا يعتبرون بها ،
 والغاشية : العقوبة تعسافهم وتعمهم ، وبغته : فجأة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن أكثر الناس لا يؤمنون مهما حرصت على إيمانهم
 ولا يتأملون في الدلائل الدالة على نبوتك - ذكر هنا أن هذا ليس ببدع منهم ،
 فأكثرهم في غفلة عن التفكير في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه في السموات
 من كواكب ثابت وسيارات ، وأفلاك دائرات ، وفي الأرض من حدائق
 وجنات ، وجبال راسيات ، وبحار زاخرات ، وقفار شاسعات ، وحيوان ونبات :
 وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

الإيضاح

(وكأين من آية في السموات والأرض يمررون عليها وهم عنها معرضون) أى وكم
 في السموات والأرض من آيات دالة على توحيد الله وكمال علمه وقدرته من شمس
 وقمر ونجوم وجبال وبحار ونباتات وأشجار يمر عليها أكثر الناس وهم غافلون عما فيها

من عبرة ودلالة على توحيد ربها ، وأن الأوهية لا تكون إلا للواحد القهار الذي خلقها وخلق كل شيء فأحسن تدييره .

وعلى الجملة فما في السموات والأرض من عجائب وأسرار وإتقان وإبداع -
ليدل أتم الدلالة على العلم المحيط والحكمة البالغة والقدرة التامة .

والذين يشتغلون بعلم ما في السموات والأرض وهم غافلون عن خالقهما ، ذاهلون عن ذكره ، يتمتعون عقولهم بلذة العلم ، ولكن أرواحهم تبقى محرومة من لذة الذكر ومعرفة الله عز وجل ، إذ الفكر وحده وإن كان مفيداً لا تكون فائدته نافعة في الآخرة إلا بالذكر ، والذكر وإن أفاد في الدنيا والآخرة لا تكمل فائدته إلا بالفكر ، فطوبى لمن جمع بين الأمرين فكان من الذين أوتوا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ونجوا من عذاب النار في الآخرة .

(وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) أى وما يقر هؤلاء بأن الله هو الخالق كما قال « وَلَكِنَّ سَاءَ لِنَبِهِمْ مِمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » إلا وهم مشركون به فى عبادتهم سواء من الأوثان والأصنام ومن زعمهم أن له ولداً ، تعالى عما يقولون .

قال ابن عباس هم أهل مكة آمنوا وأشركوا وكانوا يقولون فى تليبتهم : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك ، وهذا هو الشرك الأعظم ، إذ يعبد مع الله غيره ، وفى صحيح مسلم أنهم كانوا إذا قالوا لبيك لا شريك لك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (قَدْ ، قَدْ) أى حسب حسب لا تزيدوا على هذا ، وفى الصحيحين عن ابن مسعود « قات يارسول الله : أى الذئب أعظم ؟ قال : أن يجعل لله نداً وهو خلقك » .

ومن درس تاريخ الأمم الماضية والحاضرة عرف كيف طرأ الشرك على الأمم ، وسرى فى عبادتهم سر يان السم فى الدمس .

قال ابن القيم في إغاثة اللهفان : وما زال الشيطان يوحى إلى عبّاد القبور منهم أن الدعاء عندها مستجاب ، ثم ينقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء لها والإقسام على الله بها - مع أن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه أو يسأل بأحد من خلقه - فإذا تقرر ذلك عندهم ، نقلهم منه إلى دعائه وعبادته وسؤاله الشفاعة من دون الله ، واتخاذ قبره وثناً تطلق عليه القناديل والستور ، ويطاف به ويستلم ويقبل ويحج إليه ويدبح عنده ، فإذا تقرر هذا عندهم نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته واتخاذها عبداً ومنسكاً ، ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخراهم ، وكل هذا مما علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث الله رسوله صلى الله عليه وسلم من تجديد التوحيد وألا يعبد إلا الله اه .

أما التوسل إلى الله بصالحى عباده كقولهم اللهم بجاه فلان عندك أو بحق فلان أو بجرمته أسألك أن تفعل كذا فلم ينقل عن أحد من سلف الأمة أنهم كانوا يدعون بمثل هذا الدعاء ، وما أخرجه الطبراني من حديث فاطمة بنت أسد من قوله (بحق نبيك والأنبياء من قبلى) فقد طعن فيه رجال الحديث ، على أنه ليس فيه إلا الدعاء بحق النبيين فحسب ، وهو ما فضلهم الله به على غيرهم من النبوة والرسالة وما وعدهم به من التمكين والنصر ، على أن حقوق الرسل وصالح الصالحين ليست من أعمال السائل التي يستحق عليها الجزاء ولا رابطة تربطها بإجابة سؤاله . (أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون؟) أى أفأمن هؤلاء الذين يؤمنون بالله ربهم ويشركون به فى عبادته غيره ، أن تأتيهم عقوبة تغشاهم وتغمهم ، أو تأتيهم الساعة فجأة حيث لا يتوقعون ، وهم مقيمون على شركهم ، وكفرهم بربهم ، فيخلدهم فى نار جهنم .

والآية كقوله « أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض؟ أو يأتيهم المذاب من حيث لا يشعرون . أو يأخذهم فى قلوبهم؟ أم هم مطمئنون . أو يأخذهم على تخوف؟ فإن ربكم لرؤوف رحيم . »

وقوله « أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ؟ أَوْ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ؟ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ؟ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ » .

وجاء في الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما فلا يتباعدانه ولا يطويانه ، ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته (الناقة ذات الدر) فلا يطعمه ، ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته (لقمته) إلى فيه فلا يطعمها » والمراد من كل هذا أنها تبغت الناس وهم منهمكون في أمور معاشهم فلا يشعرون إلا وقد أتتهم .

والحكمة في إبهام وقتها أن الفائدة لا تتم إلا بذلك ، ليخشى أهل كل زمان إتيانها في هذا الوقت ، فيحملهم الخوف على مراقبة الله تعالى في أعمالهم فيلتزموا الحق ويتحروا الخير ويتقوا الشرور والمعاصي .

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى ، أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ (١٠٩)

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن أكثر الناس لا يفكرون فيما في السموات والأرض من آيات، ولا يعتبرون بما فيها من علامات، تدل على أن الله هو الواحد الأحد، الفرد

الضمد - أمر رسوله أن يخبر الناس أن طريقه هي الدعوة إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له وحده يدعوبها هو ومن اتبعه على بصيرة وبرهان .

الإيضاح

(قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) أى قل أيها الرسول: هذه الدعوة التي أدعو إليها ، والطريقة التي أنا عليها ، من توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الأوثان والأصنام هي سنتي ومنهاجى ، وأنا على يقين مما أدعو إليه ولدى الحجة والبرهان على ما أقول ، وكذلك يدعو إليها أيضا من اتبعني وآمن بي وصدقني . والآية كقوله : « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ » . (وسبحان الله) أى وأتزه الله وأعظمه من أن يكون له شريك فى ملكه ، أو أن يكون هناك معبود سواه ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا : « تَسْبُحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا » .

(وما أنا من المشركين) أى وأنا برىء من أهل الشرك به لست منهم ولا هم منى .

وفى قوله : (على بصيرة) إيماء إلى أن هذا الدين الخفيف لا يطلب التسليم بنظريات ومعتقداته بحكايتها فحسب ، ولكنه دين حجة وبرهان ، فقد ذكر مذاهب الخالفين وكرّم عليها بالحجة ، وخاطب العقل ، واستنهض الفكر ، وعرض نظام الأكوان ، وما فيها من الإحكام والإتقان ، على أنظار العقول وطالبها بالإيمان فيها ، لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه .

نقل البغوى عن ابن عباس فى تفسير قوله : « وَمَنْ اتَّبَعَنِي » يعنى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا على أحسن طريقة ، وأقصد هداية ، معدن العلم ، وكنز الإيمان ، وجند الرحمن ، وعن ابن مسعود . أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم

كانوا أفضل هذه الأمة ، وأبرها قلوبا ، وأعمقها علما ، وأقلها تكلفا ، اختارهم الله
 لصحبة نبيه ، وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلهم ، واتبعوهم على إثرم ، وتمسكوا
 بما استطعتم من أخلاقهم وسيرهم ، فإنهم كانوا على الصراط المستقيم .
 وقد كان من شبه منكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم أن الله لو أراد إرسال
 رسول لبعث ملكا كما حكى عنهم سبحانه : « لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلْنَا مَلَائِكَةً »
 فرد سبحانه عليهم بقوله :

(وما أرسلنا من قبلك إلا رجلا نوحى إليهم من أهل القرى) فكيف عجبت
 منك ولم يعجبوا ممن قبلك من الرسل ، ونظير هذا قوله : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ
 الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنْهَمُمْ لِيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ » وقوله :
 « وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَأَيَّا كُلُونَ الطَّعَامِ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ » وقوله : « قُلْ مَا كُنْتُ
 بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ » الآية .

وهذه الشبهة ذكرت في كثير من السور كالأعراف وإبراهيم والنحل والكهف
 والأنبياء والشعراء ، وقال الحافظ بن كثير : يخبر تعالى أنه إنما أرسل رسلا من الرجال
 لا من النساء ، وهذا قول الجمهور كما دل عليه سياق هذه الآية الكريمة ، فالله لم يوح
 إلى امرأة من بنات بنى آدم وحى تشريع اه .

وفي قوله : (من أهل القرى) أى من أهل الأمصار دون البوادي إيماء إلى أن
 سائر البلدان تتبعهم إذا آمنوا ، ولأن أهل البادية أهل جفاء ، يرشد إلى ذلك قوله
 عليه السلام « من بدا جفا ، ومن اتبع الصيد غفل » .

ثم أتبع ذلك بتأنيبهم وتهديدهم على تكذيبهم بالرسول صلى الله عليه وسلم فقال :
 (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ؟) أى أفلم يسيروا
 هؤلاء المشركون من كفار قريش ممن يكذبونك ويحسدون نبوتك وينكرون
 ما حجتهم به من توحيد الله وإخلاص العبادة له ، فينظروا فيما وطئوا من البلاد من
 أوقعتهم من الأمم قبلهم كقوم لوط وصالح وسائر من عذبهم الله من الأمم ، وما

أخلفنا بهم من بأسنا بتكذيبهم رسلنا ، وجمودهم بآياتنا ، ويعتبروا بما حل بهم .
ثم رغب في العمل للأخرة فقال :

(ولدار الآخرة خير للذين اتقوا) أى إن الدار الآخرة للذين آمنوا بالله ورسله
واتقوا الشرك به وارتكاب الآثام والمعاصي - خير من هذه الدار للعشركين المنكرين
للبعث المكذبين بالرسل والذين لاحظ لهم من هذه الحياة إلا التمتع بلذاتها .
فإن نعيمها البدني أكمل من نعيم الدنيا ، لدوامه وثباته ، وخلوه عن المنغصات
والآلام ، فما بالك بنعيمها الروحي من لقاء الله ورضوانه وكمال معرفته .

(أفلا تعقلون؟) هذا الفرق أيها المكذبون بالآخرة ، أما إنكم لو عقلتُم ذلك لآمنتُم .
ثم ذكر سبحانه تبييناً لفؤاده عليه السلام أن العاقبة لرسله ، وأن نصره تعالى
ينزل عليهم حين ضيق الحال وانتظار الفرج كما قال : « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي »
وقال : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا » وأن نصره يأتيهم إذا تمادى المبطون
في تكذيبهم فقال :

حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا
فَنَجَّيْنَا مِنَ النَّشَاءِ وَلَا يُرَدُّ أَسْئَارًا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ
فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ، مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن
تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ (١١١)

شرح المفردات

الظن هنا : إما بمعنى اليقين وإما بمعنى الحسبان والتقدير ، والبأس : العقاب ،
والألباب : العقول واحدها لب ، وسى بذلك لكونه خالص مافي الإنسان من قواه ،
والعبرة : الحال التي يتوصل بها من قياس ما ليس بمشاهد بما هو بمشاهد .

الإيضاح

(حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا) أى وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى فدعوا من أرسلوا إليهم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له فكذبوا بما جاءهم به ، وردوا ما أتوا به من عند ربهم ، حتى إذا يئس الرسل من إيمانهم لانهما كهم فى الكفر وتماديهم فى الطغيان من غير وازع ، وظنت الأمم أن الرسل الذين أرسلوا إليهم قد كذبوهم فيما كانوا أخبروهم عن الله من وعده لهم النصر عليهم - جاءهم نصرنا .

وهذه سنة الله فى الأمم ، يرسل إليهم الرسل بالبينات ، ويؤيدهم بالمعجزات ، حتى إذا أعرضوا عن الهداية ، وعاندوا رسل ربهم ، وامتدت مدة كيدهم وعدوانهم ، واشتد البلاء على الرسل واستشعروا بالقنوط من تمادى التكذيب وتراخى النصر - جاءهم نصر الله فجأة ، وأخذ المكذبين العذاب بقبته ، كالطوفان الذى أغرق قوم نوح ، والريح التى أهلكت عادا قوم هود ، والصيحة التى أخذت ثمود ، والغسق الذى نزل بقرى قوم لوط وهم فيها كما قال : « أَلَمْ يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ، أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » .

وفى هذا تذكير لكفار قريش بأن سنته تعالى فى عباده واحدة لا يظلم فيها ولا محاباة ، وبأنهم إن لم ينيبوا إلى ربهم حل بهم من العذاب ما حل بأمثالهم من أقوام الرسل كما قال فى سورة القمر : « أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلِيكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ؟ » وقد نصر الله نبيه صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر وما بعدها من الغزوات ، وأهلك الجاحدين المعاندين من قومه .

روى البخارى بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت لابن أختها عروة بن الزبير وهو يسألها عن قول الله تعالى : (حتى إذا استيأس الرسل) الآية ، هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدقوهم ، فظال عليهم البلاء واستأخر عليهم النصر ، حتى إذا

استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم -
جاءهم نصر الله عند ذلك .

وعن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ وظنوا أنهم قد كذبوا (مخففة)
أخرجه ابن مردويه من طريق عكرمة ، ونحوه عن ابن عباس قال : ينس الرسل أن
يستجيبوا لهم وظن قومهم أن الرسل كذبوهم بما جاءوهم به جاءهم نصرنا ، ونحوه
عن ابن مسعود قال حفظت عن رسول الله في سورة يوسف أنهم قد كذبوا مخففة اهـ .
(فنجي من نشاء) أى فنجي الرسل ومن آمن بهم من أقوامهم ، لأنهم على
حسب ما وضع الله من تأثير الأعمال في طهارة النفوس وزكائها - هم الذين يستحقون
النجاة دون غيرهم كما قال : « قَدْ أَقْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » .

(ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) أى ولا يمنع عقابنا وبطشنا عن التعم
الذين أجزموا فكفروا بالله وكذبوا رسله ، وما أتوهم به من عند ربهم .
وقد جرت سنة الله أن يبلغ الرسل أقوامهم و يقيموا عليهم الحجة وينذروهم
سوء عاقبة الكفر والتكذيب ، فيؤمن المتهتون ، ويصر المعاندون ، فينجي الله
الرسل ومن آمن من أقوامهم ويهلك المكذبين .

ولا يخفى ما في الآية من التهديد والوعيد لكفار قريش ومن على شاكلتهم من
المعاصرين للنبي صلى الله عليه وسلم .

(لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب) قص الخبر : حدث به على أصح
الوجوه وأصدقها ، من قولهم قص الأثر واقتضه إذا تتبعه وأحاط به خبراً ، أى لقد
كان في قصص يوسف عليه السلام مع أبيه وإخوته عبرة لذوى العقول الراجحة
والأفكار الثاقبة ، لأنهم هم الذين يعتبرون بعواقب الأمور التي تدل عليها أوائلها
ومقدماتها ، أما الأغرار الغافلون فلا يستعملون عقولهم في النظر والاستدلالات ،
ومن ثم لا يفيدهم النصح .

وجه الاعتبار بهذه القصة أن الذى قدر على إنجاء يوسف بعد إلقائه في غيابة
الجب وإعلاء أمره بعد وضعه في السجن ، وتمليكه مصر بعد أن بيع بالثلث البعس ،

والتحكيين له في الأرض من بعد الإسار والحبس الطويل ، وإعزازه على من قصده بالسوء من إخوته ، وجمع شمله بأبويه وبهم بعد المدة الطويلة المدى ، والحجى بهم من الشقة البعيدة النائية - إن الذي قدر على ذلك كله لقادر على إعزاز محمد صلى الله عليه وسلم وإعلاء كلمته ، وإظهار دينه ، فيخرجه من بين أظهركم ، ثم يظهره عليكم ، ويمكن له في البلاد ، ويؤيده بالجند والرجال ، والأتباع والأعوان ، وإن مرت به الشدائد ، وأنت دونه الأيام والحوادث .

(ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه) أى ما كان هذا القصص حديثا يخلق ويفترى لأنه نوع أعجز حجة الأحاديث وزواة الأخبار - ممن لم يطالع الكتب ولم يخاطب العلماء ، فهو دليل ظاهر ، وبرهان قاهر ، على أنه جاء بطريق الوحي والتنزيل ، ومن ثم قال ولكن تصديق الذي بين يديه أى من الكتب السماوية التي أنزلها الله قبله على أنبيائه كالتوراة والإنجيل والزيور ، أى تصديق ما عندهم من الحق فيها ، لا كل الذي عندهم ، فهو ليس بمصدق لما عندهم من خرافات فاسدة ، وأوهام باطلة ، لأنه جاء لمحوها وإزالتها ، للإثباتها وتصديقها .
(وتنصیل كل شيء) من أمر الله ونهيه ، ووعدته ووعدته ، وبيان ما يجب له تعالى من صفات الكمال وتنزهه عن صفات النقص ، وفيه قصص الأنبياء مع أقوامهم ، لما فيها من عبر وعظات وسائر ما بالعباد إليه حاجة .

وعلى الجملة ففي القرآن تفصيل كل شيء يحتاج إليه في أمر الدين ، وقد أسهب في موضع الإسهاب وأوجز حيث يكفي الإيجاز ، ففصل الحق في العقائد بالحجج والدلائل ، وفي الفضائل والآداب وأصول الشريعة وأمهات الأحكام بما به تصلح أمور البشر وشئون الاجتماع .

(وهدى) أى وهو هدى لمن تدبره ، وأنعم في النظر فيه وتلاه حتى تلاوته ، فهو مرشد إلى الحق وهاد إلى سبيل الرشاد وعمل الخير والصلاح ، في الدين والدنيا .

(ورحة لقوم يؤمنون) أى وهو رحة عامة للمؤمنين الذين تنفذ فيهم شرائعهم في دينهم وديانهم .

والخاضعون لها من غير المؤمنين يكونون في ظلها آمنين على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ، أحراراً في عقائدهم وعباداتهم ، مساوين للمؤمنين في حقوقهم ومعاملاتهم ، يعيشون في بيئة خالية من الفواحش والمنكرات التى تفسد الأخلاق وتمسك بالقضائل . نسأل الله العظيم أن يجعلنا منهم في الدنيا والآخرة ، وأن يحشرنا في زمرة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين يوم تسودّ وجوه وتبيضّ وجوه وأن يجعل خواتمنا خير الخواتم في الدنيا والآخرة كما جعل خاتمة يوسف مع أبويه وإخوته كذلك .

إجمال ما جاء فى سورة يوسف

- (١) قصص يوسف رؤياه على أبيه يعقوب .
- (٢) نهى يعقوب لولده عن قصّة قصصه على إخوته .
- (٣) تديبرهم المكيدة ليوسف وإلقائه فى غيابة الجب .
- (٤) ادعاؤهم أن الذئب قد أكله .
- (٥) عثور قافلة ذاهبة إلى مصر عليه والتقاطها له .
- (٦) بيعها إياه فى مصر بشن بخس لعزير مصر .
- (٧) وصية العزيز لامراته بإكرام مشواه .
- (٨) مراودة المرأة له عن نفسها وإعداد الوسائل لذلك .
- (٩) تمنّعه من ذلك إكراماً لسيدة الذى أكرم مشواه .
- (١٠) قدّها لقميصه وادعاؤها عليه أنه هو الذى أراد بها الفاحشة .
- (١١) شهادة شاهد من أهلها بما يجلى الحقيقة .
- (١٢) افتضاح أمرها فى المدينة لدى النسوة .
- (١٣) تديبرها المكيدة لأولئك النسوة وإحكام أمرها .
- (١٤) إدخاله السجن اتباعاً لمشيئتها .

- (١٥) تعبيره رؤيا فتيتين دخلا معه السجن .
- (١٦) رؤيا الملك وطلبه تعبيرها .
- (١٧) إرشاد أحد الفتيتين للملك عن يوسف وأنه نعم المعبر لها .
- (١٨) طلب الملك إحضاره من السجن واستخلافه لنفسه .
- (١٩) توليته رئيسا للحكومة ومهيمنًا على ماليها .
- (٢٠) مجيء إخوة يوسف إليه وطلبه منهم أن يحضروا أخاهم لأبيهم .
- (٢١) إرجاع البضاعة التي جاءوا بها .
- (٢٢) إحضارهم أخاه إليه بعد إعطائهم الموثق لأبيهم .
- (٢٣) طلب أبيهم أن يدخلوا المدينة من أبواب متعددة .
- (٢٤) إخبار يوسف لأخيه عن ذات نفسه .
- (٢٥) أذان المؤذن أن العير قد سرقوا .
- (٢٦) قول الإخوة إن أخاه قد سرق من قبل بعد حجزه عنده .
- (٢٧) طلب الإخوة من يوسف أن يأخذ أخدم مكانه .
- (٢٨) وجود غشاوة على عيني يعقوب من الحزن .
- (٢٩) تعريف يوسف بنفسه لإخوته .
- (٣٠) حين جاء البشير بقميص يوسف ارتد يعقوب بصيرا .
- (٣١) طلب الإخوة من أبيهم أن يستغفر لهم .
- (٣٢) رفع يوسف أبويه على العرش .
- (٣٣) قول يوسف لأبيه هذا تأويل رؤياي من قبل .
- (٣٤) دعاؤه بحسن الخاتمة .
- (٣٥) في هذا القصة إثبات لنبوته محمد صلى الله عليه وسلم .
- (٣٦) تحذير المشركين من نزول العذاب بهم كما حدث لمن قبلهم .
- (٣٧) لم يرسل الله إلا رجلا وما أرسل ملائكة .
- (٣٨) نصر الرسل بعد الاستيئاس .
- (٣٩) في قصص الرسل عبرة لأولى الألباب .

سورة الرعد

هي مدنية وآياتها ثلاث وأربعون ، نزلت بعد سورة محمد ، ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

(١) إنه سبحانه أجل في السورة السابقة الآيات السماوية والأرضية في قوله « وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ » ثم فصلها هنا أتم تفصيل في مواضع منها .

(٢) إنه أشار في سورة يوسف إلى أدلة التوحيد بقوله « أَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُ سِنِينَ كَثِيرًا وَنَبَذْنَاهُ إِلَىٰ ظِلْمٍ أُظْلَمَ فِيهِ وَيَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ لَهُ الْحَكِيمُونَ » ثم فصل الأدلة هنا بإسهاب لم يذكر في سالفها .

(٣) إنه ذكر في كلتا السورتين أخبار الماضين مع رسلهم ، وأنهم لاقوا منهم ما لاقوا وأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، وكتب الخزي على الكافرين والنصر لرسوله والمؤمنين ، وفي ذلك تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم وتثبيت لقلبه .

(٤) جاء في آخر السورة السابقة وصف القرآن بقوله : « مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » وفي أول هذه وهو قوله « تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١)

الإيضاح

(المر) قلنا فيما سلف إن هذه الحروف في أوائل السور حروف تنبيه كالألف ونحوها ، وتقرأ بأسمائها ساكنة فيقال «ألف لام ، ميم ، را» ؛ كما قلنا إن كل سورة بدأت بهذه الحروف ففيها انتصار للقرآن وتبيين أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه .

(تلك آيات الكتاب) أى آيات هذه السورة آيات القرآن البالغ حد الكمال المستغنى عن الوصف بين الكتب السماوية الجدير بأن يختص باسم «الكتاب» .

(والذى أنزل إليك من ربك الحق) أى وكل القرآن الذى أنزله إليك ربك حق لا شك فيه ، وهذا كالأجمال بعد التفصيل لما تقدم من وصف السورة بالكمال فكأنه سبحانه بعد أن أثبت لهذه السورة الرفعة والكمال عمم هذا الحكم فأثبتته للقرآن جميعه فلا تختص به سورة دون أخرى .

وهذا الأسلوب جار على سنن العرب في مخاطبتهم فقد قالت فاطمة الأمارية وقد سئلت عن بنيتها ، أى بئيك أفضل؟ (ربيعة ، بل عمارة ، بل قيس ، بل أنس ، شكلتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل ، هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها) فبعد أن أثبتت الفضل لكل منهم على سبيل التعيين ، أجمت القول وأثبتت لهم الفضل جميعا .

(ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) أى ولكن أكثر الناس لا يصدقون بما أنزل عليك من ربك ، ولا يقرون بهذا القرآن وما فيه من بديع الأمثال والحكم والأحكام التى تناسب مختلف المصنوع والأزمان ، والتى لو سار الناس على سننها لسعدوا فى الدنيا والآخرة ؛ وقد سلك المسلمون سبيلها فى عصورهم الأولى فكانوا خير أمة أخرجت للناس ، وامتلكوا أكثر المنور فى ذلك الحين وثلوا عزوش كسرى والروم ودانت لهم الرقاب ، وساسوا الملك سياسة شهد لهم أعداؤهم

بأنها كانت سياسة عدل ورفق ، وأخذ على يد الظالم لإينصاف المظلوم ، فله دين رقع من قدر أهله حتى أوصلهم إلى السماكين ؛ ولكن خلف من بعدهم خلف أضاعوا معالم دينهم وألقوه وراءهم ظهريا لحاق بهم ما كانوا يكسبون ، وصاروا أذلة بعد أن كانوا أعزة ، ومستعبدين بعد أن كانوا سادة ، تابعين بعد أن كانوا متبوعين « إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » والآية بمعنى قوله « وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ » .

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ، يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلِقَاءَ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ، يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَبَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزُرُوعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ لِبَعْضِهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤) .

شرح المفردات

العمد: السوارى واحدها عمود كآدم وأديم، والتسخير: التذليل والطاعة، والتدبير: التصريف للأمر على وجه الحكمة ، والتفصيل : التبيين ، والآيات: هي الأدلة التي تقدم ذكرها من الشمس والقمر ، واليقين : العلم الثابت الذى لا شك فيه ، والمد : البسط ، والرواسي: الثوابت المستقرة التي لا تتحرك ولا تنتقل واحدها راسية ، والأنهار

واحداهنهر: وهو الجرى الواسع من الماء ، زوجين اثنين : أى ذكر وأُنثى ، والعرب تسمى الاثنين زوجين والواحد من الذكور زوجاً لأثاه ، والأُنثى زوجاً وزوجة لذكورها ، يغشى يغطى ، قطع : أى بقاع مختلفة ، متجاورات : أى متقاربات ، جنات أى بساتين ، صنوان : هى النخلات يجمعها أصل واحد وتتشعب فروعها واحداه صنو وفى الحديث «عم الرجل صنو أبيه» والأكل (بضم تين وبتسكين الثانى) : ما يؤكل فالمراد به هذا التمر والحب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآية السالفة أن أكثر الناس لا يؤمنون ، أعقبه بذكر البراهين على التوحيد والمعاد فاستدل بأحوال السموات وأحوال الشمس والقمر وأحوال الأرض جبالها وأنهارها وأزهارها ونجيلها وأعشابها واختلاف ثمراتها وتنوع غلاتها على وجود الإله القادر القاهر الذى بيده الخلق والأمر ، وبيده الضر والنفع ، وبيده الإحياء والإماتة ، وهو على كل شىء قدير .

الإيضاح

ذكر سبحانه أدلة على وجوده ووحدانيته وقدرته ، بعضها سماوى وبعضها أرضى ، وذكر من الأولى جملة أمور :

(١) (الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها) أى إنه تعالى خلق السموات مرفوعات عن الأرض بغير عمد بل بأمره وتسخيره ، على أبعاد لا يدرك مداها ، وأنتم ترونها كذلك بلا عمد من تحتها تسندها ، ولا علاقة من فوقها تمسكها ، وقد تقدم هذا بإيضاح فى سورة البقرة .

(٢) (ثم استوى على العرش) أى ثم استوى على عرشه الذى جعله مركز هذا التدبير العظيم استواء يليق بعظمته وجلاله يدبر أمر ملكه بما اقتضاه علمه من

النظام وإرادته وحكمته من إحكام وإتقان ، وقد سبق تفصيل هذا في سورتي الأعراف ويونس .

(٣) (وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى) أى وذلل الشمس والقمر وجعلهما طائعين لما أريد منهما لمنافع خلقه ، فكل منهما يسير في منازله لوقت معين ؛ فالشمس تقطع فللكها في سنة ، والقمر في شهر لا يختلف جرى كل منهما عن النظام الذى قدر له ، وإليه الإشارة بقوله « وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا » وقوله « وَالْقَمَرَ قَدَرْنَا مَنَازِلَ » وإيضاح هذا ذكر في سورتي يونس وهود ، وبعد أن ذكر هذه الدلائل قال :

(يدبر الأمر) أى إنه تعالى يتصرف فى ملكه على أتم الحالات وأكمل الوجوه فهو يميت ويحيى ويوجد ويعدم ويغنى ويفقر وينزل الوحي على من يشاء من عباده ، وفى ذلك برهان ساطع على القدرة والرحمة ، فإن اختصاص كل شىء بوضع خاص وصفة معينة لا يكون إلا من مدبر اقتضت حكمته أن يكون كذلك ، فتديره لعالم الأجسام كتديره لعالم الأرواح وتديره للكبير كتديره للصغير لا يشغله شأن عن شأن ، ولا يمنعه تدبير شىء عن تدبير آخر كما هو شأن المخلوقات فى هذه الدنيا ، وكذلك هو دليل أيضا على أنه تعالى متعال فى ذاته وصفاته وعلمه وقدرته لا يشبه شيئا من مخلوقاته .

(يفصل الآيات) أى يلبس الموجودات ثوب الوجود بنظام محكم دقيق ، ويوجد بينها ارتباطات تجعلها كأنها سلسلة متصلة الخلقات لا انفصام لبعضها عن بعض ، فالجموعة الشمسية من الشمس والقمر والكواكب مرتبطة فى حركاتها بنظام خاص بواسطة الجاذبية لاتحاد عن سننه ولا تجد معدلا عن السير فيه على حسب النهج الذى قدر لها ، ولا تزال كذلك حتى ينتهى العالم ، فيحدث حينئذ تغيير لأوضاعها ، واختلال لحركاتها : « إِذَا الدَّيَّاءُ انفطرت . وَإِذَا النُّكُوءُ انْتشرت » .

وهكذا الموجودات الأرضية لها أسباب تعقبها مسببات يادّن الواحد الأحد ، فالزراع يحرث أرضه ويلقى فيها الحب ثم يسقيها ويضع فيها السّماد ويوالى سقيها حتى تؤتى أكلها ، فإذا فقدت حلقة من تلك السلسلة باء صاحب الزرع بالخسران فلم يحصل على شيء أو حصل على القليل التافه الذى لا يعدل التعب والنصب الذى فعله .

ثم أبان سبحانه أن هذا التدبير للأمر والتفصيل للآيات الدالين على القدرة الكاملة والحكمة الشاملة ، جاء الحكمة اقتضتها وهى الإيقان بالبعث لفصل القضاء ومجازاة كل عامل بما عمل : « يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ » فإما نعيم مقيم وإما عذاب أليم ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(لعلكم بقاء ربكم توقنون) أى رجاء أن تتحققوا أن من قدر على رفع السموات بغير عمد ودبر الأمر بإحكام ونظام - قادر على البعث والنشور وإحياء الموتى من القبور لفصل القضاء ثم ثواب كل عامل على ما عمل ، إن خيرا نغير وإن شرا فشر ؛ فإما سعادة لا شقاء بعدها ، وإما نكال وعذاب تتبدل من هوله الجلود « كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلَّاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا » .

وخلاصة هذه العبرة — إنه تعالى كما قدر على إبقاء الأجرام الفلكية العظيمة من الشمس والقمر وسائر الكواكب فى الجو بلا عمد ودبر الأمور بغاية الإحكام والدقة ولم يشغله شأن عن شأن - ليس بالبعيد عليه أن يرد الأرواح إلى الأجساد ويُعيد العالم إلى حياة أخرى حياة استقرار وبقاء يفصل فيها القضاء ، وإذا أيقنتم بذلك وليتم معرضين عن عبادة الأصنام والأوثان ، وأخلصتم العبادة للواحد الديان ، وأتقنتم بوعده ووعيده وصدقتم برسله وبادرتم إلى اتباع أوامره وتركتم ما نهى عنه ، ففرتنم بسعادة الدارين .

وبعد أن ذكر سبحانه الدلائل السماوية على وحدانيته وكال قدرته أردفها بالأدلة الأرضية فقال :

(١) (وهو الذى مد الأرض) أى جعلها متسعة ممتدة فى الطول والعرض ،
 لتثبت عليها الأقدام ، ويتقلب عليها الحيوان ، وينتفع الناس بخيراتها زرعها وضرعها ،
 وبما فى باطنها من معادن جامدة وسائلة ، ويسيروا فى أكنافها ينتفعون برزق
 ربهم منها .

ولا شك أن الأرض لعظم سطحها هى فى رأى العين كذلك ، وهذا لا يمنع
 كرويتها التى قد قامت عليها الأدلة لدى علماء الفلك ولم يبق لديهم فيها ريب .
 (٢) (وجعل فيها رواسى) أى وأرساها بجبال راسيات شامخات لانتقل
 ولا تتحرك حتى لا تتحيد وتضطرب .

(٣) (وأنهارا) أى وجعل فيها أنهارا جارية لمنافع الإنسان والحيوان ، فيسقى
 الإنسان ماجعل الله فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال ويجعلها له طعاما
 وفاكهة ، ويكون منها مادة حياته فى طعامه وشرابه وغذائه .

(٤) (ومن كل الثمرات ، جعل فيها زوجين اثنين) أى وجعل فيها من كل
 أصناف الثمرات زوجين اثنين ذكرا وأنثى حين تكونها ، فقد أثبت العلم حديثا أن
 كل شجر وزرع لا يتولد ثمرة وحبه إلا من اثنين ذكر وأنثى ، وعضو التذكير
 قد يكون مع عضو التأنيث فى شجرة واحدة كأغلب الأشجار ، وقد يكون عضو
 التذكير فى شجرة وعضو التأنيث فى شجرة أخرى كالنخل ، وما كان العضوان فيه
 فى شجرة واحدة إما أن يكونا معا فى زهرة واحدة كالقطن ، وإما أن يكون كل
 منهما فى زهرة كالقرع مثلا .

(٥) (ينفشى الليل النهار) أى يلبس النهار ظلمة الليل فيصير الجو مظلما
 بعد أن كان مضيئا فكأنه وضع عليه لباسا من الظلمة ، وكذلك يلبس الليل ضياء
 النهار فيصير الجو مضيئا ، وكل هذا لتم المنافع للناس بالسكون والاستقرار أو بالبحث
 على المعاش والأرزاق كما قال : « أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ

وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا » وقال : « وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ » .

وبعد أن ذكر هذه الأدلة التي تشهد رأى العين فى كل صباح ومساء وفى كل حين ووقت ، ذكر أن هذه الأدلة لا يلتفت إليها ولا يعتبر بها إلا من له فكر يتدبر به وعقل يهتدى به إلى وجه الصواب وينتقل من النظر فى الأسباب إلى مسبباتها فقال : (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) أى إن فيما ذكر من عجائب خلق الله وعظيم قدرته التى خلق بها هذه الأشياء العظيمة - لدلائل وحجج لمن يتفكر فيها ويعتبر فيعلم أن الخالق لذلك هو القاهر فوق العباد وهو ذو الإرادة المطلقة والقدرة الشاملة ، فلا يعجزه إحياء من هلك من خلقه ولا إعادة من فى منهم ولا ابتداء ما شاء ابتداعه ، ومن ثم لا تجوز العبادة إلا له ولا التذلل والخضوع إلا لسلطانه ، ولا ينبغي أن تكون الصنم أو وثن أو حجر أو شجر أو ملك أو نبي أو غير أولئك ممن سلب النفع والضرر ، بل لا يستطيع صرف الأذى عن نفسه : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْنَاهُمْ الذُّبَابَ شَيْئًا لَآيَسْتَفْقِدُوهُ مِنْهُ » .

وقد روى « تفكروا فى آلاء الله ولا تتفكروا فى الله » .

(٦) (وفى الأرض قطع متجاورات) أى وفى الأرض بقاع متجاورات متدانيات يقرب بعضها من بعض وتختلف بانتفاضل مع تجاورها ، فمن سبخة لانبت شيئا إلى أرض جيدة القربة تجاورها وتنتب أفضل الثمرات ومختلف النبات ، ومن صالحة للزرع دون الشجر ، إلى أخرى مجاورة لها تصلح للشجر دون الزرع ، إلى متدانية لهما تصلح لجميع ذلك ، ومنها الرخوة التى لا تكاد تماسك وهى تجاور الصلبة التى لا تفتتها المعاول وأدوات التدمير من المفرعات (الديناميت والقنابل) وكلها من صنع الله وعظيم تديره فى خلقه .

(وجنات من أعناب) أى وفيها بساتين من أشجار الكرم .

(وزرع) أى وفيها زرع من كل نوع وصنف من الحبوب المختلفة التى تكون غذاء للإنسان والحيوان .

(ونخيل صنوان وغير صنوان) أى وفيها نخيل صنوان يجمعها أصل واحد وتتشعب فروعها ، وغير صنوان أى متفرقات مختلفة الأصول .

(يسقى بماء واحد وفضل بعضها على بعض فى الأكل) أى يسقى كل ما ذكر من القطع والجنات والزرع والنخيل بماء واحد لا اختلاف فى طبعه ، ومع وجود أسباب التشابه بفضل بمحض القدرة بعضا منها على بعض فى الثمرات شكلا وقدرا ورائحة وطعما وحلاوة وحموضة .

ثم بين أن مثل هذا لا يفكر فيه إلا من أوتى العقل الذى يفكر فى المقدمات والنتائج والأسباب والمسببات فقال :

(إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) أى إن فيما فصل من الأحوال السالفة لآيات باهرة لقوم يعملون على قضية العقل ، فمن ير خروج الثمار المختلفة الأشكال والألوان والطعوم والروائح فى تلك البقاع المتلاصقة ، مع أنها تسقى بماء واحد وتتشابه وسائل نموها - يجزم حتما بأن لذلك صانعا حكما قادرا مدبرا لا يعجزه شيء ، وكذلك يعتقد بأن من قدر على إنشاء ذلك ، فهو قادر على إعادة مبادئه أول مرة ، بل هو أهون منه لدى النظر والاعتبار .

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ؟
 أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَعْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ
 أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ
 قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ ، وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَعْفَرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ،

وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ، إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧).

شرح المفردات

العجب : تغير النفس حين رؤية ما يستبعد في مجرى العادة ، والأغلال : واحدها غل ، وهو طوق من الحديد طرفاه في اليدين ويحيط بالعنق ، والمثلثات (بفتح فضم) واحدها مثلة (بفتح فضم) كسمرة : وهي العقوبة التي تترك في المعاقب أثرا قبيحا كصلم أذن أو جدد أنف أو سمل عين ، والغفر : الستر بالإمهال وتأخير العقاب إلى الآخرة ، والمراد بالآية هنا الآيات الحسية كقاب عصا موسى حية وناقص صالح ، والإنذار : التخويف ، والهادى : القائد الذي يقود الناس إلى الخير كالأنبياء والحكماء والمجاهدين .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر إنكارهم لوحدايته تعالى مع وضوح الأدلة على ذلك من خلق السموات بلا عمد وتسخير الشمس والقمر يجريان إلى أجل مسمى ، ومن مد الأرض وإلقاء الجبال الرواسي فيها إلى آخر ما ذكر من الآيات الدالة على عظيم قدرته وبديع صنعه لمن يتأمل ويتفكر في ذلك الملكوت العظيم - ذكر هنا إنكارهم للبعث والنشور على وضوح طريقه وسطوع دليله قياسا على ما يرون ويشاهدون ، فإن من قدر على خلق السموات والأرض وسائر العوالم على هذا النحو الذي يحار الإنسان في الوصول إلى معرفة كنهه لا يعجز عن إعادته في خلق جديد كما قال تعالى :
أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزُبْ عَنْهُمُ الْجَبَلُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُخْرِجَ الْمُوتَى ؟ .

الإيضاح

(وإن تعجب فعجب قولهم أنذا كنا تراباً أننا لفي خلق جديد ؟) أى وإن تعجب من عبادتهم ما لا يضر ولا ينفع من الأصنام والأوثان بعد أن قامت الأدلة على التوحيد ، فأعجب منه تكذيبهم بالبعث واستبعادهم إياه بقولهم :

(أنذا كنا تراباً أننا لفي خلق جديد ؟) أى أنذا فينا ولبينا نعاد بعد العدم ، مع أنهم لا ينكرون قدرته تعالى على إيجادهم بداة ذى بدء وتصويرهم فى الأرحام وتغيير شئونهم حالاً بعد حال .

وقد تكرر هذا الاستفهام فى أحد عشر موضعاً فى تسع سور من القرآن: فى الرعد، والإسراء ، والمؤمنون ، والنحل ، والمنكوت ، والسجدة ، والصفات ، والواقعة ، والنازعات ؛ وكلها تتضمن كمال الإنكار وعظيم الاستبعاد .

ثم وصف أولئك المنكرين للبعث فقال :

(أولئك الذين كفروا بربهم) أى أولئك الذين جحدوا قدرة ربهم وكذبوا رسوله على ما عاينوا من آياته الكبرى التى ترشدهم إلى الإيمان وتهديهم سبيل الرشاد لو كانوا يبصرون - هم الذين تمادوا فى عنادهم وكفرهم ، فإن إنكار قدرته تعالى بإنكار له لأن الإله لا يكون عاجزاً .

(وأولئك الأغلال فى أعناقهم) أى وأولئك مقيدون بسلاسل وأغلال من الضلال تصدمهم عن النظر فى الحق واتباع طريق الهدى والبعد عن الهوى كما قال :

كيف الرشاد وقد خلقت فى نفر لهم عن الرشاد أغلال وأقياد

وقد يكون المعنى - إنهم يوم القيامة عند العرض للحساب توضع الأغلال فى أعناقهم كما يقاد الأسير الدليل بالغل ، ويؤيده قوله تعالى : « إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ » .

(وأولئك أصحاب النار هم المالكون فى النار دار

الذل والهوان لا يتحولون عنها ولا يبرحونها كيفاء ما سولت لهم أنفسهم من سيء الأعمال وما اجترحوا من الموبقات والشرور والآثام : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » .

وبعد أن ذكر تكذيبهم للرسول صلى الله عليه وسلم في إنكار عذاب يوم القيامة ذكر وجودهم لعذاب الدنيا الذي أوعدهم به ، وكانوا كلما هددهم بالعذاب قالوا له نحننا بهذا العذاب وطلبوا منه إنزاله ، وهذا ما أشار إليه بقوله :

(ويستعجلونك بالسيئة) أى ويستعجلونك بالعقوبة التى هددوا بها إذا هم أصروا على الكفر استهزاء وتكديبا كما حكى الله عنهم فى قوله « وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ » وفى قوله « وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطْنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ » وفى قوله « سَأَلْنَا سَائِلًا بِعَذَابٍ وَاقِعٍ » .

(قبل الحسنه) أى قبل الثواب والسلامة من العقوبة ، وكان صلى الله عليه وسلم يعدم على الإيمان بالثواب فى الآخرة وحصول النصر والظفر فى الدنيا .

(وقد خلت من قبلهم المثلاث) أى ويستعجلونك بذلك مستهزئين بإنذارك منكرين ووقع ما تنذرهم به ، والحال أنه قد مضت العقوبات الفاضحة النازلة على أمثالهم من المكذبين المستهزئين ، فمن أمة مسخت قرده ، وأخرى أهلكت بالرجفة ، وثالثة أهلكت بالخسف إلى نحو أولئك .

(وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم) أى وإن ربك لذو عفو وصفح عن ذنوب من تاب من عباده فتارك فضيخته بها فى يوم القيامة ، ولولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة حين اكتسابها كما قال « وَلَوْ يُوَاقِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرهَا مِنْ دَابَّةٍ » .

(وإن ربك لشديد العقاب) لمن يجترح السيئات وهو متماد فى غوايته سادر

في آثامه ، وقد يعجل له قسطا منه في الدنيا ويكون جزاء له على ما سوت له نفسه كما يشاهد لدى المدمنين على الخمر من اعتلال وضعف ومرض مزمن وفقر مدقع وذلل وهوان بين الناس ، وفي المقامرين من خراب عاجل وإفلاس في المال والذلل بعد العز ، وربما اقتضت حكمته أن يؤجل له ذلك إلى يوم مشهود يوم يقوم الناس لرب العالمين فيستوفى قطه هناك نارا تكوى بها الجباه والجنوب ، وتبدل الجلود غير الجلود ، وقد قرن المغفرة بالعقاب في مواضع كثيرة من الكتاب الكريم ليعتدل الرجاء والخوف كقوله « إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » وقوله « نَبِيٌّ عِمَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ، وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » إلى أمثال ذلك من الآيات التي تجمع الخوف والرجاء .

روى ابن أبي حاتم عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية (وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ) الخ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لولا عقو الله وتجاوزه ما هنا أحدا العيش ، ولولا وعيده وعقابه لاتكل كل واحد » .

وبعد أن ذكر طعنهم في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لقوله بالحشر والمعاد ، ثم طعنهم فيه لأنه أنذرهم بحلول عذاب الاستئصال ذكر أنهم طعنوا فيه لأنه لم يأت لهم بمعجزة مبينة كما فعل الرسل من قبله فقال :

(ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه) أى ويقول الذين كفروا تعنتا وجحودا : هلا يأتينا بآية من ربه كعصا موسى وناقة صالح ، فيجعل لنا الصفا ذهباً ويزيح عنا الجبال ويجعل مكانها مروجا وأنهارا ، وقد طلبوا ذلك ظنا منهم أن القرآن كتاب كسائر الكتب لا يدخل في باب المعجزات التي أتى بها الرسل السالفون .

وقد رد الله عليهم الشبهة بقوله في آية أخرى « وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ » أى إن سنتنا أن الآيات إن لم يؤمن بها من طلبوها أهلكتهم بذنوبهم ، ولم نشأ أن يحل بكم عذاب الاستئصال .

ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم راغباً في إجابة مقترحاتهم حباً في إيمانهم بين له وظيفته التي أرسل لأجلها فقال :

(إنما أنت منذر) أى إن مهمتك التي بعثت لها هي الإنذار من سوء مغبة ما نهى الله عنه كدأب من قبلك من الرسل ، وليس عليك الإتيان بالآيات التي يقترحونها ابتغاء هدايتهم ، فأمر ذلك إلى خالقهم وهاديهم « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » ، « فَلَمَّا كَبَخِيعُ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَمًا » .

(ولكل قوم هاد) أى ولكل أمة قائد يدعوهم إلى سبيل الخير ، فطره الله على سلوك طريقه بما أودع فيه من الاستعداد له بسائر وسائله ، وقد شاء أن يبعث هؤلاء الهداة في كل زمان كي لا يترك الناس سدى ، وأولئك هم الأنبياء الذين يرسلهم لهداية عباده، فإن لم يكونوا فالحكماء والمجتهدون الذين يسرون على سنتهم ويقتدون بما خلفوا من الشرائع وفضائل الأخلاق وحميد الشرائع ، ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » .

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ،
وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِعَقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩)
سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ
وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ
مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ، وَإِذَا
أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١) .

شرح المفردات

الغيض : النقصان يقال غاض الماء وغضته كما قال « وَغِيضَ الْمَاءَ » بمقدار ،
 أى بأجل لا يتجاوزُه ولا ينقص عنه ، والغائب : ما غاب عن الحس ، والشاهد :
 الحاضر المشاهد ، الكبير : العظيم الشأن ، والمتعالى : المستعلى على كل شيء ، وأسر
 الشيء : أخفاه في نفسه ، والمستخفى : المبالغ في الاختفاء ، والسارب : الظاهر ، من
 قولهم سرب : إذا ذهب في سرِّبه (طريقه) معقبات ، أى ملائكة تعتقب في حفظه
 وكلاءته واحدها معقبة ، من عقبه : أى جاء عقبه ، من بين يديه ، أى قدمه ، ومن
 خلفه ، أى من ورائه ، من أمر الله ، أى بأمره وإعانتة ، وال ، أى ناصر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه إنكار المشركين للبعث واستبعادهم له كما حكى عنهم
 بقوله « أَتَدْرَأُونَ كُنَّا تُرَابًا أُنْمِئًا لَنَبِيٍّ خَلَقَ جَدِيدٍ » ، إذ رأوا أن أجزاء الحيوان حين
 تفتتها وتفرقها يختلط بعضها ببعض ، وقد تتناثر في بقاع شتى ونواح عدة وربما أكل
 بعض الجسم سبع وبعضه الآخر حداة أو نسر ، وحينئذ يأكل السمك قطعة منه
 وأخرى يجرى بها الماء وتدفن في بلد آخر ، أزال هذا الاستبعاد بأن الذى لا يعزب
 عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، والذى يعلم الأجنة في بطون أمهاتها ، ويعلم
 ما هو مشاهد لنا أو غائب عنا يعلم تلك الأجزاء المتناثرة ومواضعها مهما نأى
 بعضها عن بعض ويضم متفرقاتها ويعيدها سيرتها الأولى .

الإيضاح

(الله يعلم ما تحمل كل أنثى) من ذكر أو أنثى ، واحد أو متعدد ، طويل
 العمر أو قصيره كما قال « هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ
 أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ » ، وقال « وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ » .

(وما تعويض الأرحام وما تزداد) أى وما تنقصه الأرحام وما تزداده من عدد فى الولد فقد يكون واحدا وقد يكون اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة ، ومن جسده فقد يكون تاما وقد يكون ناقص الخلق وهو المخدج ، ومن مدة الحمل فقد تكون أقل من تسعة أشهر وقد تكون تسعة إلى عشرة أشهر تقريبا ، فقد دل الإحصاء والبحث الذى عمل فى مستشفيات لندن على أن الجنين لا يستقر فى البطن وهو حى أكثر من ٣٠٥ يوم ، وفى مستشفيات برلين على أنه لا يستقر أكثر من ٣٠٨ ومن ثم جرت المحاكم الشرعية الآن على أن عدة المطلقة لا تكون أكثر من سنة بيضاء أى سنة قمرية أى ٣٥٤ يوما ، وهو رأى فى مذهب مالك .

(وكل شيء عنده بمقدار) أى ولكل شيء ميقات معين لا يعدوه زيادة ولا نقصا « فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » .
 وفى معنى الآية قوله تعالى « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » وفى الحديث « إن إحدى بنات النبي صلى الله عليه وسلم بعثت إليه رسولا : أن ابنا لها فى الموت وأنها تحب أن تحضره ، فبعث إليها يقول « إن لله ما أخذ وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فمرها فلتصبر ولتحتسب » .

(عالم الغيب والشهادة) أى عالم ما هو غائب عنكم لا تدركه أبصاركم من عوالم لا نهاية لها ، فقد أثبت العلم حديثا أن هناك عوالم لا تراها العين المجردة بل ترى بالمنظار المعظم (التليسكوب) ومنها الجرائم (المكروبات) التى تولد كثيرا من الأمراض التى قد يعسر شفاؤها أو يتعذر فى كثير من الأحوال كجرائم السرطان والسنل والزهرى ، أو تشفى بعد حين كجرائم الجدرى و (الدفتيريا) والحصبية ونحوها وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى « وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ » ، وما تشهدونه وتروونه بأعينكم « وَمَا يَعْرُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَضْفَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » .

(الكبير المتعال) أى هو العظيم الشأن الذى يجعل عما وصفه به الخلق من صفات الخلقين ، المستعلى على كل شئ بقدرته وجبروته وهو وحده الذى له التصرف فى ملكوته .

وفى هذا إيماء إلى أنه تعالى قادر على البعث الذى أنكروه ، والآيات التى اقترحوها ، والعذاب الذى استعجلوه ، وإنما يؤخر ذلك لمصلحة لا يذركها البشر فيخفى عليه سرها .

وفى معنى الآية قوله « سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ » .

ثم بين أن علمه تعالى شامل لجميع الأشياء فقال .

(سواء منكم من أسر القول ومن جهر به) أى من أسر قوله وأخفاه ولم يتلفظ به ، أو جهر به وأظهره فهو سواء عند الله يسمعه ولا يخفى عليه شئ منه كما قال « وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى » وقال « وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ » قالت عائشة : سبحان الذى وسع سمعه الأصوات ، والله لقد جاءت المجادلة تشتكى زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا فى جنب البيت وإنه ليخفى على بعض كلامها فأنزل الله « قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ، وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَ كَمَا ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ » .

(ومن هو مستخف بالليل) أى يختف فى عقر داره فى ظلام الليل .

(وسارب بالنهار) أى ظاهر ماش فى بياض النهار ، فكلاهما عند الله سواء ، وروى عن ابن عباس فى تفسير ذلك : هو صاحب ربيبة مستخف بالليل ، وإذا خرج بالنهار أرى الناس أنه برىء من الإثم .

(له معقبات من بين يديه ومن خلفه) أى للانسان ملائكة يتعاقبون عليه : حرس بالليل وحرس بالنهار يحفظونه من المضار ويراقبون أحواله ، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ أعماله من خير أو شر ، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، فائنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال ، صاحب اليمين يكتب الحسنات وصاحب الشمال

يكتب السيئات ، وملكاً آخران يحفظانه ويحرسانه ، واحد من ورثته وآخر من قدامه ، فهو بين أربعة أملاك بالنهار وأربعة آخرين بالليل بدلا ، حافظان وكتبان كما جاء في الحديث الصحيح « يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعد إليهم الذين أتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم كيف تركتكم عبادي ؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون » .
وإذا علم الإنسان أن هناك ملائكة تحصى عليه أعماله كان حذرا من وقوعه في المعاصي خيفة أن يطعم عليه الكرام الكاتبون ويزرجه الحياء عن الإقدام على فعل الموبقات كما يحذر من الوقوع فيها إذا حضر من يستحى منه من البشر ، وهو أيضا إذا علم أن كل عمل له في كتاب مدخر يكون ذلك رادعاً له داعياً إلى تركه .

وليس أمر الحفظة بالبعيد عن العقل بعد أن أثبتته الدين وبعد أن كشف العلم أن كثيرا من الأعمال العامة يمكن إحصاؤها بالآلات دقيقة لاتدع منها شيئا إلا تحصيه ، فقد أصبحت المياه والكهرباء في المدن تمتد بالآلات (العدادات) فالمياه التي يشربونها والكهرباء التي يضيئون بها منازلهم تحصى وتمد كما يعد الدرهم والدينار ، وكذلك هناك آلات تحصى المسافات التي تقطعها السيارات في سيرها ، وأخرى تحصى تيارات الأنهار ومساقط المياه إلى غير ذلك من دقيق الآلات التي لا تترك صغيرة ولا كبيرة من الأعمال إلا تكتبها وتحصيها .

وكما تقدمت العلوم وكشفت ما كان غائبا عنا كان في ذلك تصديق أيما تصديق لنظريات الدين ووسيلة حافزة إلى الاعتراف بما جاء فيه مما يخفى على بعض الماديين الذين لا يقرون إلا بما يرونه رأي العين ولا يذعنون إلا بما يقع تحت حسهم ، وبهذا يصدق قول القائل (الدين والعقل في الإسلام صنوان لا يفترقان ، وصديقان لا يختلفان) .

(يحفظونه من أمر الله) أي هم يحفظونه بأمر الله وإذنه وجميل رعايته وكلاءته ، فكما جعل سبحانه للحسوس أسبابا محسوسة ربط بها مسبباتها على حسب ما اقتضته حكمته ، فجعل الجفن سببا لحفظ العين مما لم يرد أن يكون ، كذلك

جعل لغير المحسوسات أسبابا ، فجعل الملائكة أسبابا للحفظ ، وأعماله تعالى لا تخلو من الحكم والمصالح .

وكذلك جعل لحفظ أعمالنا كراما كاتبين وإن كنا لاندرى ماقلههم وما مدادهم وكيف كتابتهم وأين محلهم وما حكمة ذلك ، مع أن علمه تعالى بأعمال الإنسان كاف في الثواب والعقاب عليها ، وقد يكون من حكمة ذلك أنه إذا علم الإنسان أن أعماله محفوظة لدى الحفظة الكرام كان أجدر بالإذعان لما يلقاه من ثواب وعقاب يوم العرض والحساب .

ولمفسرى السلف أقوال في الآية . قال ابن عباس : هم الملائكة تعقب بالليل تكتب على ابن آدم ويحفظونه من بين يديه ومن خلفه ، وذلك الحفظ من أمر الله و بإذن الله ، لأنه لا قدرة للملائكة ولا لأحد من الخلق أن يحفظ أحدا من أمر الله وبما قضاه عليه إلا بأمره وإذنه ، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه . وقال علي : ليس من عبد إلا نعمة ملائكة يحفظونه من أن يقع عليه حائط أو يتردى في بئر أو يأكله سبع أو يفرق أو يحرق ، فإذا جاء القدر خلوا بينه وبين القدر اه .

(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) أى إن الله لا يغير ما بقوم من نعمة وعافية فيزيلها عنهم ويذهبها حتى يغيروا ما بأنفسهم من ذلك بظلم بعضهم بعضا واعتداء بعضهم على بعض ، وارتكابهم للشرور والموبقات التى تقوض نظم المجتمع وتفتك بالأمم كما تفتك الجرائم بالأفراد .

روى أن أبا بكر قال : قال صلى الله عليه وسلم « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه يوشك أن يعمهم الله تعالى بعقاب » ويرشد إلى صحة هذا قوله تعالى : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » وقد بسطنا هذا فيما سلف في مواضع متعددة وأشار إليه المحقق المؤرخ ابن خلدون في مقدمة التاريخ وعقد له بابا جعل عنوانه (فصل في أن الظلم مؤذن بخراب العمران) واسترسل فيه على النهج المعروف عنه وضرب له الأمثلة بما حدث في كثير من الأمم قبل الإسلام

وبعد و بين أن الظلم قد نل عزوشها وأذل أهلها وجعلها طعنة للآكلين ومثلا للآخرين .

وفي حال الأمم الإسلامية اليوم وقد اجتمعت من أطرافها وتحكم فيها أهل الغرب وأذلوها بعد أن استعمروها عبرة لمن تدبر وألقى السمع وهو شهيد ، والقرآن شاهد على صدق هذه النظرية ، كما قال : « إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » وقوله « إِنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » أي الصالحون لاستعمارها والانتفاع بخيراتها ما ظهر منها وما بطن .

(وإذا أراد الله بقوم سراً فلا مرد له) أي وإذا أراد الله بقوم سوءاً من مرض وفقر ونحوهما من أنواع البلاء بما كسبت أيديهم حين أخذوا في الأسباب التي تصل بهم إلى هذه النهاية ، فلا يستطيع أحد أن يدفع ذلك عنهم ولا يرد ما قدره لهم .

وفي هذا إيماء إلى أنه لا ينبغي الاستعجال بطلب السيئة قبل الحسنة ، وطلب العقاب قبل الثواب فإنه متى أراد الله ذلك وأوقعه بهم فلا دافع له .
والخلاصة — إنه ليس من الحكمة في شيء أن يستعجلوا ذلك .

(وما لهم من دونه من وال) أي وما لهم من دون الله سبحانه من يلي أمورهم فيجلب لهم النفع ويدفع عنهم الضر ، فالآلهة التي اتخذوها لا تستطيع أن تفعل شيئاً من ذلك ولا تقدر على دفع الأذى عن نفسها فضلاً عن دفعه عن غيرها .
ولله در الأعرابي الذي رأى صنماً يبول عليه الثعلب فنارت به حميته فأمسكه وكسره إرباً إرباً وقال :

أربُّ يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالث عليه الثعلاب

وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْأَلُهمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَاسْتَنْقَدُوهُ مِنْهُ » .

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢)
وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ، وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ، وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ

فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ ، وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) لَهُ
 دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ
 كَفِيٍّ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ، وَمَادُعَاءِ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي
 ضَلَالٍ (١٤) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا
 وَظِلَالَهُمْ بِالْعُدْوَةِ وَالْأَصَالِ (١٥) .

شرح المفردات

البرق : ما يرى من النور لأمميا خلال السحاب ، والرعد : هو الصوت المسموع
 خلال السحاب . وسببهما على ما بين في العلوم الطبيعية - أن البرق يحدث من تقارب
 سحابتين مختلفتي الكهربية ، حتى يصير ميل إحداهما للاقتراب من الأخرى أشد
 من قوة الهواء على فصلها ، فتبهجم كل منهما على الأخرى بنور زاهر وصوت قوى
 شديد ، فذلك النور هو البرق . والصوت هو الرعد الذي نشأ من تصادم دقائق
 الهواء الذي تطرده كهربية البرق أمامها ، والصواعق : واحدها صاعقة . وسببها أن
 السحب قد تمتلىء بكهربية الأرض بكهربية أخرى والهواء يفصل بينهما ، فإذا
 قاربت السحب وجه الأرض تنقص الحرارة الكهربية منها فتنزّل صاعقة تهلك
 الحرث والنسل ، والمجادلة : من الجدل وهو شدة الخصومة ، وأصله من جدلت الحبل
 إذا أحكمت فتله كأن المجادلين يفتتل كل منهما الآخر عن رأيه ، والمحال : أى المماحلة
 والمكايذة لأعدائه ، يقال محل فلان بفلان إذا كايده وعرضه للهلاك ، وتمحل إذا
 تكلف في استعمال الحيلة ، في ضلال : أى ضياع وخسار ، والظلال : واحدها ظل
 وهو الخيال الذي يظهر للجرم ، والعدو : واحدها غداة كقبي وقناة وهى أول النهار،
 والأصال ، واحدها أصيل : ما بين المضر والمغرب .

المعنى الجملي

بعد أن خوِّف سبحانه عباده بأنه إذا أراد السوء يقوم فلا يدفعه أحد - أتبعه بذكر آيات تشبه النعم والإحسان حيناً وتشبه العذاب والنقم حيناً آخر .

روى « أن عامر بن الطفيل وأزبد بن ربيعة أخا ليبيد وقد أبا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر فأبى عليهما ذلك ، فقال له عامر لعنه الله : أما والله لأملأنها عليك خيلاً جُرُداً ورجالا مُرُداً ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أباي الله عليك ذلك وابنا قَيْلَةَ (الأنصار من الأوس والخزرج) ثم إنهما هما بالفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجعل أحدهما يخاطبه والآخر يستل سيفه ليقتله من ورائه ، فغماه الله تعالى منهما وعصمه ، فخرجا من المدينة وانطلقا في أحياء العرب يجمعان حربيه ، فأرسل الله على أزبد سبحانه فيها صاعقة فأحرقته ، وأرسل الطاعون على عامر فخرجت فيه غدة كغدة البكر ، فأوى إلى بيت سلوئية وجعل يقول : (غدة كغدة البكر وموت في بيت سلوئية ، حتى مات) وأنزل الله في مثل ذلك « ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله » .

الإيضاح

(هو الذي يريكم البرق خوفاً وطبعاً) أى إنه سبحانه يسخر البرق فيخاف منه بعض عباده كالمسافر ومن في جربينه التمر والزبيب للتجفيف ، ويطمع فيه من له فيه النفع كمن يرجو المطر لسقي زرعته ، وهكذا حال كل شيء في الدنيا هو خير بالنظر إلى من يحتاج إليه في أوانه ، وشر بالنظر إلى من يضره على حسب مكانه أو زمانه . (وينشىء السحاب الثقال) أى ويوجد السحب منشأة جديدة ممتلئة ماء فتكون ثقيلة قريبة من الأرض . (ويسبح الرعد بحمده) أى إن في صوت الرعد دلالة على خضوعه وتزيمه

عن الشريك والمعجز كما يدل صوت المسيح وتحميده على انقياده لقدرة ذلك الحكيم الخبير، ونحو الآية قوله سبحانه: « وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَسْبِغْ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَنْفَعُهُمْ تَسْبِيحُهُمْ » .

أخرج أحمد والبخاري والترمذي والنسائي وغيرهم عن ابن عمر « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرعد والصواعق يقول : اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك » .

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا هبت الريح أو سمع صوت الرعد تغير لونه حتى يُعرف ذلك في وجهه ، ثم يقول للرعْد : سبحان من سبحت له ، وللريح : اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها عذابا . » .
(وللملائكة من خيفته) أي ويسبح الملائكة الكرام من هيئته وجلاله ، وينزهونه عن اتخاذ الصاجبة والولد .

(ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء) إصابته بها قهلا .
(وهم يجادلون في الله) أي يجادلون في شأنه تعالى وفيما وصفه به الرسول الكريم من كمال العلم والقدرة والتفرد بالألوهية وإعادة الناس للجزاء على أعمالهم يوم العرض والحساب .

وفي هذا تسليية لرسوله صلى الله عليه وسلم فإنه لما نعى على كفار قريش عنادهم في اقتراحهم الآيات الحسنية كآيات موسى وعيسى عليهما السلام ، وإنكارهم كون الذي جاء به عليه السلام آية - سلاه بما ذكر كأنه قال له : إن هؤلاء لم يقصروا جحدهم وإنكارهم على النبوة بل تحطوه إلى الألوهية ، ألا تراهم مع ظهور الآيات البينات على التوحيد يجادلون في الله باتخاذ الشركاء وإثبات الأولاد له ، ومع إحاطة علمه وشمول قدرته ينكرون البعث والجزاء والعرض للحساب ، ومع شديد بطشه وعظيم سلطانه يقدمون على المكابدة والعناد ، فهون عليك ولا تنهب نفسك عليهم حسرات .

(وهو شديد الحال) أى وهو سبحانه لا يغالب فهو شديد البطش والسكيد لأعدائه يأتيهم من حيث لا يحتسبون ولا يتربصون ، وهو القادر على أن ينزل عليهم عذابا من عنده لا يستطيعون حيلة لدفعه ولا قوة على رده ، لكنه يمهلم لأجل معلوم على حسب ما تقتضيه الحكمة كما صح فى الحديث : « إن ربك لا يمهلم ولكن يمهلم » ومثل الآية قوله : « وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ » وقوله : « وَمَكْرُؤًا مَّكْرًا وَمَكْرًا نَّامِكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَا لَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ » .

قال ابن جرير فى تفسير ذلك : والله شديدة مما حلتها فى عقوبة من طغى عليه وعى وتمادى فى كفره .

(له دعوة الحق) أى له تعالى الدعاء والتضرع الواقع حيث ينبغى أن يكون ، والجناب حين وقوعه ، أى إن إجابة ذلك له تعالى دون غيره .

وفى هذا وما قبله وعيد للكفار على مجادلتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم بحلول محاله بهم ، وتهديدهم بإجابة دعائه عليه السلام إن دعا عليهم . وقيل دعوة الحق كلمة التوحيد: أى لله من خلقه أن يوحده ويخلصوا له ، وإنه شرعها وأمر بها .

(والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه) أى والأصنام الذين يدعوهم المشركون ويتضرعون إليهم ويتجاوزون الله لا يجيبونهم بشيء مما يريدونه من نفع أو ضرر إلا كما يجيب الماء لمن بسط كفيه إليه يطالب منه أن يبلغ فاه ، والماء جماد لا شعور له يبسط الكفين ولا قبضهما ، فكيف يجيب دعاءه ، وهكذا أصنامهم لا تجيب جوابا .

وخلاصة ذلك — إنه شبه آهتهم حين استكفوا بهم ما أهمهم ، وهم لا يشعرون بشيء فضلا عن أن يجيبوا أحدا — بماء بمرأى من عطشان باسط كفيه إليه يناديه لهم أقبل إلىّ وهو لا يستطيع ردا ولا جوابا .

(ومادعاء الكافرين إلا في ضلال) أى فى ضياع وخسار ، فإن دَعَوْا الله لم يجهم ، وإن دعوا الأصنام لم تستطع إجابتهم .
ثم بين عظيم قدرته تعالى فقال :

(والله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها) أى وينقاد لعظمته كل شىء ، فيخضع له الملائكة والمؤمنون من الثقيلين طوعا فى الشدة والرخاء ، والكفار كرها فى حال الشدة كما جاء فى آيات كثيرة كقوله : « وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهَهُ » وقوله : « فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ . فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ » وقوله « لَنْ أَنْجِيَنَّكَ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » .

(وظلالهم بالغدو والآصال) أى وتسجد أيضا ظلال كل من كفر بالله طوعا أو كرها بالغدوات والعشايا تبعا لانقياد الأجسام التى تشرق عليها الشمس ، فيصرفها الله تعالى بالمد والتقلص ، وتخصيص هذين الوقتين بالذكر لظهور الامتداد والتقلص فيهما ، أو المراد بهما الدوام كما جاء ذلك كثيرا فى استعمالاتهم .

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ ، قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ
أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ؟ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى
وَالْبَصِيرُ ؟ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ؟ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا
كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ؟ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ
الْقَهَّارُ (١٦) .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن كل من فى السموات والأرض خاضع لقدرته متقاد لإرادته بالغدو والآصال ، وفى كل وقت وحين ، طوعا أو كرها على حسب ما يريد .

أعاد الكلام مع المشركين ليلزمهم الحجة ويقنعهم بالدليل ويضيق عليهم باب الحوار حتى لا يستطيعوا الفرار من الاعتراف بوحدانيته وشمول قدرته وإرادته وأنه لا معبود سواه ولا رب غيره .

الايضاح

(قل من رب السموات والأرض) أى قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء الذين اتخذوا من دونه أولياء : من رب هذه الأجرام العلوية والسفلية التى تبهر العقول بجميل صنعها وكامل ترتيبها ووضعها ؟

(قل الله) أى قل لهم : الذى خلقها وأنشأها وسواها على أتم وضع وأحكم بناء هو الله ، وقد أمر عليه السلام ليجيب بذلك للإشارة إلى أنه هو وهم سواء فى ذلك الجواب الذى لا محيص منه وهم لا ينكرونه البتة كما قال تعالى : « وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ » .

(قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ؟) أى قل لهم بعد أن ثبت هذا لديكم : فلم اتخذتم لأنفسكم من دون الله معبودات هى جمادات لا تملك لأنفسها نفعا ولا ضرا ؟ فكيف تنفع غيرها أو تضر ؟ وإذا لم يكن لها القدرة على شىء من ذلك فعبادتها محض السفه الذى لا يرضاه لنفسه رشيد يزن أعماله بميزان الحكمة والمصاححة .

وخلاصة ذلك — أفبعد أن علمتم أنه هو الخالق لهذا الخلق العظيم تتخذون من دونه أولياء هم غاية فى العجز؟ وجعلتم ما كان يجب أن يكون سببا فى الاعتراف بالوحدانية وهو علمكم بذلك — سببا فى إشراككم به سواه من أضعف خلقه ، وهو بمعنى قوله : « إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ » ثم ضرب مثلا للمشركين الذين يعبدون الأصنام والمؤمنين الذين يعترفون بأن لا رب غيره ولا معبود سواه ، فقال :

(قل هل يستوى الأعمى والبصير) أى قل لهم منصوراً ستخيف آرائهم مقلداً
تقييح معتقداتهم : هل يستوى الأعمى الذى لا يبصر شيئاً ولا يهتدى لحجة يسلكها
إلا بأن يهتدى بدليل ، والبصير الذى يهتدى الأعمى لسلك الطريق ؟ لاشك أن
الجواب أنهما غير متساويين ، فكذلك المؤمن الذى يبصر الحق فيتبعه ويعرف
المهتدى فيسلكه ، لا يستوى وإياكم ؟ وأنتم لا تعرفون حقاً ولا تبصرون رسداً .
ثم ضرب مثلاً للكفر والإيمان بقوله :

(أم هل تستوى الظلمات والنور) أى هل تستوى الظلمات التى لا ترى فيها
الطريق فتسلك ، والنور الذى يبصر به الأشياء ، ويجلو ضوءه الظلام - لاشك أن
الجواب عن ذلك أنهما لا يستويان ، فكذلك الكفر بالله صاحبه منه فى حيرة ،
يضرب أبداً فى غمرة ، لا يهتدى إلى حقيقة ولا يصل إلى صواب ، والإيمان بالله صاحبه
منه فى ضياء ، فهو يعمل على علم بربه ومعرفة منه بأنه يشبهه على إحسانه ويعاقبه على
إساءته ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ويكلؤه بعنايته فى كل وقت وحين ، فهو يقوض
أمره إليه إذا أظلمت الخطوب ، وتعمدت فى نظره مدطحات الحوادث .

(أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم) أى أخلق أو أنكم
التي اتخذتموها معبودات من دون الله ، خلقاً كخلقه ، فاشتبه عليكم أمرها فيما خلقت
وخلق الله ، فجعلتموها له شركاء من أجل ذلك - أم إنما بكم الجهل والبعد عن
الصواب ، إذ لا يخفى على من له مُسكة من العقل أن عبادة ما لا يضر ولا ينفع من
الجهل بحقيقة العبود ومن يجب له التذلل والخضوع والإنابة والزلفى والإخبارات إليه ،
وإنما الواجب عبادة من يرجى نفعه ويخشى عقابه وضره ، وهو الذى يزرقه ويمونه
آثناء الليل وأطراف النهار .

ثم ذكر فذلك لما تقدم ونتيجة لما سبق من الأدلة والأمثال التى ضربت
لها فقال :

(قل الله خالق كل شئ وهو الواحد القهار) أى قل مبينا لهم وجه الحق :

الله خالقكم وخالق أوثانكم وخالق كل شيء ، وهو الفرد الذي لا ثاني له ، الغالب على كل شيء سواه ، فكيف تعبدون غيره وتشركون به ما لا يضر ولا ينفع .

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا ، وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى ، وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ، أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) أَفَنْ يَعْلَمُ أَمَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩)

شرح المفردات

الأودية : واحدها وادٍ ، وهو الموضع الذي يسيل فيه الماء ، والفرجة بين الجبلين ، وقد يراد به الماء الجاري فيه ، بقدرها : أى بمقدارها متفاوتة قلة وكثرة على حسب تفاوت أمكنتها صفرا وكبرا ، واحتمل : أى حمل ، والزبد : ما يعلو وجه الماء حين الزيادة كالخبث ، وما يعلو القدر عند غليانها ، والرابي : العالى المرتفع فوق الماء الطافي عليه ، والجفاء : ما رمى به الوادى من الزبد إلى جوانبه .

المعنى الجملى

بعد أن ضرب الله مثل البصير والأعمى للمؤمن والكافر ، ومثل النور والظلمات للإيمان والكفر - ضرب مثلين للحق في ثباته وبقائه ، والباطل في اضمحلاله وفنائه .

ثم بين مآل كل من السعداء والأشقياء وما أعد لكل منهما يوم القيامة ، وبين أن حالهما لا يستويان عنده ، وأن الذى يعنى تلك الأمثال ويعتبر بها إنما هو ذو اللب السليم والعقل الراجح والفكر الثاقب .

الإيضاح

(أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا راييا) أى أنزل من السحاب مطرا فسالت مياه الأودية على حسب مقدارها فى الصغر والكبر ، فحمل السيل الذى حدث من ذلك الماء زبدا عاليا مرتفعا فوقه طافيا عليه - وهذا هو المثل الأول الذى ضربه الله للحق والباطل والإيمان والكفر .

(ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله) أى ومن الذى يطرحه الناس فى النار من ذهب أو فضة وكذلك من سائر الفلزات كالحديد والنحاس والرصاص - زبد راب كما يطفو على الماء فى الأودية زبد مثله ، ويتخذ من الذهب والفضة حلى ، ومن الحديد والرصاص والنحاس وما أشبه ذلك متاع وهو ما يتمتع به الناس كالأواني والقدر وغيرها من آلات الحرث والحصد وأدوات المصانع وأدوات القتال والنزال ، وهذا هو المثل الثانى .

(كذلك يضرب الله الحق والباطل) أى وما مثل الحق والباطل إذا اجتمعا إلا مثل السيل والزبد ، فكما أن الزبد لا يثبت مع الماء ولا مع الذهب والفضة ونحوهما مما يسبك فى النار بل يذهب ويضمحل ، فالباطل لا يثبت له ولا دوام أمام الحق ، وقد فصل هذا بقوله .

(فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض) أى فأما الزبد الذى يعلو السيل فيذهب فى جانبي الوادى ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح ، وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع منه شيء وأما ما ينفع الناس من الماء والذهب والفضة فيمكث فى الأرض ، فالماء نشربه ونسقى به الأرض

فثبت جيد الزرع الذى ينتفع به الناس والحيوان ، والذهب والفضة نستعملها فى الحلى وصك النقود ، والحديد والنحاس ونحوهما نستعملها فى متاعنا من الحرث والحصد وفى المعامل والمصانع ووسائل الدفاع ونحو ذلك .

وخلاصة المثالين — إنه تعالى مثل نزول الحق وهو القرآن الكريم من حضرة القدس على القلوب الخالية منه المتفاوتة الاستعداد فى ملاحظته وحفظه ، وفى استذكاره وتلاوته ، وهو وسيلة الحياة الروحية والفضائل النفسية والآداب المرضية — بماء نزل من السماء فى أودية قاحلة لم يكن لها سابق عهد به ، وسال بمقدار اقتضت الحكمة أن يكون نافعا فى إحياء الأرض وما عليها جالبا اسمعاده الإنسان والحيوان ، وكذلك جعله حلية تتحلّى بها النفوس وتصل بها إلى السعادة الأبدية ، ومتاعا يتمتع به فى المعاش والمعاد ومثله بالذهب والفضة وسائر الفلزات التى يتخذ منها أنواع الآلات والأدوات وتبقى منتفعا بها ردحا طويلا من الزمن .

ومثل الباطل الذى ابتلى به الكفرة لفقده استعدادهم لعمل الخير بما ران على قلوبهم من شرور المعاصى واجتراح الآثام — بالزبد الزابى الذى يطفو على الماء ، أو يخرج من خبث الحديد والنحاس والفضة والذهب ونحوها ويضمحل سريعا ويزول .

وقال الزجاج : مثل المؤمن واعتقاده ونفع الإيمان له كمثل الماء المنتفع به فى نبات الأرض وحياة كل شئ ، ومثل نفع الفضة والذهب وسائر الجواهر ، لأنها كلها تبقى منتفعا بها ، ومثل الكافر وكفره كمثل الزبد الذى يذهب جفاء ، ومثل خبث الحديد وما تخرجه النار من وسخ الفضة والذهب الذى لا ينتفع به .

(كذلك يضرب الله الأمثال) أى ومثل ضربنا لهذه الأمثال البديعة التى توضح للناس ما أشكل عليهم من أمور دينهم وتظهر القوارق بين الحق والباطل والإيمان والكفر — نضرب لهم الأمثال فى كل باب حتى تستبين لهم طرق الهدى فيسلكوها وطرق الباطل فينحرفوا عنها وتتم لهم سعادة المعاش والمعاد ويكونوا المثل

الغلبا بين الناس : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » .

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعُشب ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وورعوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ - فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني به ونفع به الناس فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به » .

وروى أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مثلي ومثلكم كمثل رجل استوقد نارا فاصأ أضاءت ما حولها جعل القماش وهذه الدواب التي يقعن في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه فيقتحمن فيها - فذلك مثلي ومثلكم أنا أخذ بحجزكم عن النار ، هلم عن النار فتغلبوني فتقتحمون فيها » .

وبعد أن بين سبحانه شأن كل من الحق والباطل في الحال والمآل وأتم البيان شرع يبين حال أهلها ما لا ترغيبا فيهما وترهيبا وتكلمة لوسائل الدعوة إلى الحق والخير ، وتنفيرا عن سلوك طرق الباطل والشر فقال :

(للذين استجابوا لربهم الحسنى) أى للذين أطاعوا الله ورسوله واطقوا الأوامر وصدقوا ما أخبر به فيما نزل عليه من عنده - المثوبة الحسنى الخاصة من الكدر والنصب ، الدائمة المتقرنة بالتعظيم والإجلال ، والآية بمعنى قوله : « لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ » وقوله : « وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا » .

(والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به ،

أولئك لهم سوء الحساب، وما أوامهم جهنم وبئس المهاد) أى والذين لم يطيعوا الله ولم يتشكروا أوامره ولم ينتهوا عما نهوا عنه ، فقد جعل الله لهم ثلاثة أنواع من العذاب والعقوبة .
 (١) إنهم من شدة ما يرون من العذاب لو استطاعوا أن يجعلوا ما فى الأرض جميعاً ومثله معه فدية لأنفسهم لفعلوا ، فإن الحبيب أولاً لكل إنسان هو ذاته ، وما سواها فيحب لكونه وسيلة إلى مصالحها ، فإذا كان مالكا لهذا العالم كله ولما يساويه جعله فداء لنفسه .

وفى هذا من التهويل الشديد ومن سوء ما يلقاهم فى ذلك اليوم ، ما لا يخفى على من اعتبر وتذكر .

(٢) سوء الحساب ، فيناقشون على الجليل والخير ، وفى الحديث « من نوقش الحساب عذب » ذاك أن كفرهم أحبط أعمالهم ، وارتكابهم للشرور والآثام ران على قلوبهم وجعلها تستمرى الغواية والضلالة ، وجهنم للذنيا جعلهم يعرضون عما يقربهم إلى الله زلفى فباءوا بالخسران والهوان والنكال .

(٣) إن ما أوامهم جهنم وبئس المسكن مسكنهم يوم القيامة ، إذ أنهم غفلوا عما يقربهم إلى ربهم وينيلهم القرب من كرامته ، واتبعوا أهواءهم وانغمسوا فى لذاتهم فحقت عليهم كلمة ربك .

ونزل فى حمزة رضى الله عنه وأبى جهل كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قوله تعالى :

(أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) أى لا يستوى من يعلم أن الذى أنزله الله عليك من ربك هو الحق الذى لاشك فيه ولا امتراء . ومن لا يعلم فهو أعمى لا يهتدى إلى خير يفهمه ، ولو فهمه ما اتقاد إليه ولا صدقه ، فيبقى حائراً فى ظلمات الجهل وغياهب الضلالة .

قال قتادة : هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب الله وعقلوه ووعوه ، وهؤلاء كمن هو أعمى عن الحق فلا يبصره ولا يعقله اه .

(إنما يتذكر أولوا الألباب) أى إنما يعتبر بهذه الأمثال ويتعظ بها ويصل إلى
ليتها وسرها إلا أولو العقول السليمة والأفكار الرجيحة .

الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ
مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١)
وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢)
جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ
وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ
بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) .

شرح المفردات

يدرءون : أى يدفعون ، والعدن : الإقامة، يقال عدن بمكان كذا: إذا استقر ،
ومنه المعدن لمستقر الجواهر ، والدار : هى دار الآخرة .

المعنى الجملى

بعد أن ضرب الله الأمثال لمن اتبع الحق وسلك سبيل الرشاد ، ولمن ركب
رأسه وسار فى سبيل الضلالة لا يلوى على شىء ولا يقف لدى غاية - بين أن من جمع
صفات الخير الآتية يكون ممن اتبعوا الحق وملكوا نواحي الإيمان وأقاموا دعائمه ،
وهؤلاء قد كتب الله لهم حسن العقبى والسعادة فى الدنيا والآخرة .

الإيضاح

(الذين يوفون بعهد الله) أى الذين يوفون بما عقده على أنفسهم فيما بينهم وبين ربهم وفيما بينهم وبين العباد ، وشهدت فطرم في هذه الحياة بصحته ، وأنزل عليهم فى الكتاب إيجابه .

قال قتادة : إن الله ذكر الوفاء بالعهد والميثاق فى بضع وعشرين موضعا من القرآن عناية بأمره واهتماما بشأنه .

(ولا ينقصون الميثاق) أى الميثاق الذى وثقوه بينهم وبين ربهم من الإيمان به ، وبينهم وبين الناس من العقود كالبيع والشراء وسائر المعاملات ، والعهود التى تعاهدوا على الوفاء بها إلى أجل ، وفى الحديث : « آية المنافق ثلاث : إذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا حدث كذب » .

(والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل) أى يصلون الرحم التى أمرهم الله يوصلها فيعاملون الأقارب بالمودة والحسنى ، ويحسنون إلى المحابيح وذوى الخلة منهم بإيصال الخير إليهم ودفع الأذى عنهم بقدر الاستطاعة ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من سره أن يبسط فى رزقه ، وأن ينسأ له فى أجله فليصل رحمه » وإنساء الأجل : تأخيره ، وذلك بالبركة له فيه فكأنه قد زاد . ويدخل فى ذلك جميع حقوق الله وحقوق عباده ؛ كالإيمان بالكتب والرسل ، ووصل قرابة المؤمنين بسبب الإيمان ؛ كالإحسان إليهم ، ونصرتهم ، والشفقة عليهم ، وإفشاء السلام ، وعيادة المرضى ، ومراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء فى السفر ، إلى غير ذلك .

أخرج الخطيب وابن عساكر عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن البر والصلة ليخففان سوء الحساب يوم القيامة ثم تلا : والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب » .

(ويخشون ربهم) الخشية : خوف مقرون بالتعظيم والعلم بمن تخشاه ، ومن ثم خص الله بها العلماء بدينه وشرائعه والعالمين بجلاله وجبروته في قوله : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » والمراد أنهم يخشون ربهم ويخافونه خوف مهابة وإجلال .
(ويخافون سوء الحساب) أى يحذرون مناقشة الله إياهم الحساب ، وعدم الصفح لهم عن ذنوبهم ، فهم رهبتهم جادون في طاعته ، محافظون على اتباع أوامره وترك نواهيه .

(والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم) الصبر : حبس النفس عن نيل ما تحب ، أى والذين صبروا على ما تكرهه النفس ويثقل عليها من فعل الطاعات وترك الشهوات طلبا لرضا ربهم من غير أن ينظروا إلى جانب الخلق رياء وسمعة ، ولا إلى جانب أنفسهم زينة وعجبا .

(وأقاموا الصلاة) أى أدوها على ما رسمه الدين من خشوع القلب واحتجاب الرياء والخشية لله ، مع تمام أركانها وهيئاتها احتسابا لوجهه .

(وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية) أى وأنفقوا بعض ما رزقناهم سرا فيما بينهم وبين ربهم ، وعلانية بحيث يراهم الناس ، سواء كان الإنفاق واجبا كالإنفاق على الزوجة والولد والأقارب الفقراء ، أم مندوبا كالإنفاق على الفقراء والمحاويج من الأجانب .

(ويدعون بالحسنة السيئة) أى ويدفعون الشر بالخير ويجازون الإساءة بالإحسان ، فهو كقوله : « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » ومن ثم قال ابن عباس : أى يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سوء غيرهم .

(أولئك لهم عقبى الدار) أى أولئك الذين وصفناهم بتلك المحاسن والكمالات التى بلغت الغاية فى الشرف والكمال - هم الذين لهم عقبى الحسنة فى الدار الآخرة . ثم بين هذه عقبى فقال :

(جنات عدن يدخلونها) أى تلك العقبى هى جنات إقامة يخلدون فيها لا يخرجون منها أبدا .

ثم ذكر ما يكون فيها من الأنس باجتماع الأهل والمحبين الصالحين فقال :
(ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) أى ويجمع فيها بينهم وبين أحبائهم من الآباء والأزواج والأبناء من عمل صالحا لتقرّبهم أعينهم ويزدادوا سرورا برؤيتهم حتى لقد ورد أنهم يتذكرون أحوالهم فى الدنيا فيشكرون الله على الخلاص منها .

وفى الآية إيماء إلى أنه فى ذلك اليوم لا تجدى الأنساب إذا لم يسعفها العمل الصالح ، فالآباء والأزواج والذرية لا يدخلون الجنة إلا بعملهم ، وقد أشار إلى ذلك الكتاب الكريم : «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أْتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ»
وفى الحديث إن النبى صلى الله عليه وسلم وهو فى مرض موته قال لفاطمة : «يا فاطمة بنت محمد سلبنى من مالى ما شئت لأعفى عنك من الله شيئا» .

ثم ذكر ما لهم من الكرامة فيها بتسليم الملائكة عليهم فقال :
(والملائكة يدخلون عليهم من كل باب) أى وتدخّل عليهم الملائكة من هاهنا وهنا للتسليم عليهم والتهنئة بدخول الجنة والإقامة فى دار السلام فى جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام .

(سلام عليكم بما صبرتم) أى قائلين لهم : أمان عليكم من المكاره والخاوف التى تحيق بغيركم ، بما احتملتم من مشاق الصبر ومتاعبه والآلام التى لاقيتموها فى دار الحياة الدنيا .

(فنعم عقبى الدار) أى فنعمة عاقبة الدنيا الجنة .
أخرج ابن جرير «أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يأتى قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول : سلام عليكم بما صبرتم فنعمة عقبى الدار ، وكذا كان يفعل أبو بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم» .

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أوصاف المتقين وما أعد لهم عنده في دار الكرامة بما كان لهم من كريم الصفات وفاضل الأخلاق - بين حال الأشقياء وما ينتظرهم من العذاب والنكال ، وأنبغ الوعد بالوعيد والثواب بالعقاب على سنة القرآن الدائبة في مثل هذا « نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » .

الإيضاح

وصف سبحانه الأشقياء بصفات هي السبب في خسراتهم :

(١) (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) أى ينقضون عهد الله الذى أزمه عباده بما أقام عليه من الأدلة العقلية كالتوحيد والقدرة والإرادة والإيمان . بالأنبياء والوحى ونحوها ، ونقضه إما بالأى ينظروا فيه فلا يمكنهم العمل بموجبه ، وإما بأن ينظروا فيه ويعلموا صحته ثم هم بعد يماندون فيه ولا يعملون بما علموه واعتقدوا صحته ، وقوله : من بعد ميثاقه أى من بعد اعترافهم به وإقرارهم بصحته .

(٢) (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) من الإيمان به وبجميع أنبيائه الذين جاءوا بالحق ، فآمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعض وقطعوا الرحم وكانوا حرباً على المؤمنين وعونا للكافرين ، ومنعوا المساعدات العامة التى توجب التآلف والمودة بين المؤمنين كما جاء فى الحديث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » وجاء أيضاً « المؤمنون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو اشتكى باقى الأعضاء بالسهر والحمى » .

(٣) (ويفسدون في الأرض) بظلمهم لأنفسهم وظلمهم لغيرهم بابتزاز أموالهم واغتصابها بلا حق ، وتهيج الفتن بين المسلمين وإثارة الحرب عليهم ، وإظهار العدوان لهم .

ثم حكم عليهم بما يستحقون بما دسوا به أنفسهم فقال :

(أولئك لهم اللعنة) أى أولئك الذين اتصفوا بهذه الخمازي وسىء الصفات ، لهم بسبب ذلك الطرد من رحمة ربهم ورضوانه ، والبعد من خيرى الدنيا والآخرة . (ولهم سوء الدار) أى ولهم سوء العاقبة وهو عذاب جهنم جزاء وفاقلا اجترحوه من السيئات وأتوه من الشرور والآثام .

اللَّهُ يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ، وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا
أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ، قُلْ إِنْ اللَّهُ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ
أَنْابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ، أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ
تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ
مَا أَبَى (٢٩) .

شرح المفردات

يقدر : يضيق كقوله « وَمَنْ قَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ » أى ضيق والمراد أنه يعطيه بقدر كفايته لا يفيض عنه شيء ، متاع : أى متعة قليلة لا دوام لها ولا بقاء ، وأناب : أى رجع عن العناد وأقبل على الحق ، وتطمئن : أى تسكن وتخشع ، وطوبى لهم : أى لهم العيش الطيب وقرة العين والغبطة والسرور ، والمآب : المرجع والمنقلب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن من نقض عهد الله من بعد ميثاقه ولم يقرّ بوحدانيته وأنكر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فهو ملعون في الدنيا ومعذب في الآخرة - بين هنا أنه تعالى يبسط الرزق لبعض عباده ويضيقه على بعض آخر على ما اقتضته حكمته وسابق علمه بعباده ، ولا تعلق لذلك بإيمان ولا كفر ، فربما وسع على الكافر استدراجاً له ، وضيق على المؤمن زيادة في أجره ، ثم ذكر مقالة لهم كثير في القرآن ترددها وهي طلبهم منه آية تدل على نبوته لإنكارهم أن يكون القرآن آية دالة على ذلك ، ثم ذكر حال المؤمنين المتقين ومآلهم عند ربهم في جنات تجري من تحتها الأنهار .

الإيضاح

(الله يبسط الرزق لمن يشاء) أى الله يوسع الرزق لمن يشاء من عباده ممن هو حاذق في جمع المال وله من الحيلة في الحصول على كسبه واستنباطه بشتى الوسائل ما ينجى على غيره ، ولا علاقة لهذا بإيمان وكفر ولا صلاح ومعصية .
(ويقدر) على من يشاء ممن هو ضعيف الحيلة في كسبه ، وليس بالحول القلب في استنباط أسبابه ووسائله ، وما الغنى والفقر إلا حالان يمران على البرّ والتاجر كما يمر عليهما الليل والنهار والصبح والمساء .

ثم ذكر أن مشركى مكة بطروا بغناهم فقال :

(وفرحوا بالحياة الدنيا) أى وفرح الذين نقضوا العهد والميثاق يبسط الرزق في الحياة الدنيا وعدّوه أكبر متاع لهم وأعظم حظوة عند الناس .
ثم بين لهم خطأهم فقال :

(وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع) أى وما نعيم الدنيا إذا قيس على نعيم الآخرة إلا نزر يسير سريع الزوال فهو كمجالة الراكب وزاد الراعى ، فلا حق

لهم في البطر والأشر بما أوتوا من حظوظها وانتفعوا به من خيراتها ، فهم قد اعتزوا بالقليل السريع الزوال .

أخرج الترمذى عن المستورد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم إصبغه هذه في اليمّ فلينظر يرمح ، وأشار بالسبابة » . وأخرج الترمذى وصححه عن ابن مسعود قال : « نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير فقام وقد أثر في جنبه ، فقلنا يارسول الله لو اتخذنا لك ، فقال مالى وللدنيا ، ما أنا فى الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » .

ولما أبان أنهم قد اتخذوا بالسراب ، واكتفوا بالخباب ، ذكر ما ترتب على ذلك الغرور من اقتراحهم على رسوله صلى الله عليه وسلم الآيات فقال :

(ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه) أى ويقول الذين كفروا من أهل مكة كعبد الله بن أبى وأصحابه ، هلا أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم آية كما أرسل على الأنبياء والرسل السابقين كسقوط السماء عليهم كسفا ، أو تحويل الصفا ذهباً ، أو إزاحة الجبال من حول مكة حتى يصير مكانها مروجاً وبساتين إلى نحو أولئك من الاقتراحات التى حكاهها القرآن عنهم كقولهم : « فَمَلِئْنَا بِآيَةٍ كَمَا أَرْسَلْنَا الْأَوَّلُونَ » وكانهم لفرط عنادهم وعظيم مكابرتهم قد ادعوا أن ما أتى به من باهر الآيات كالقرآن وغيره ليس عندهم من الآيات التى توجب الإذعان والإيمان أو التى لا تقبل شكاً ولا جدلاً .

ثم أمر رسوله أن يبين لهم أن إنزال الآيات لا دخل له فى هداية ولا ضلال بل الأمر كله بيده .

(قل إن الله يضل من يشاء ويهذى إليه من أناب) أى إنه لا فائدة لسكم فى نزول الآيات إن لم يرد الله هدايتكم فلا تشغلوا أنفسكم بها ، ولكن تضرعوا إليه واطلبوا منه الهداية ، فإن الضلال والهداية بيده وإليه مقاليدها ، وادعوه أن يهيب .

للكم من أمره رشداً ، وأن يهد لكم وسائل النجاة والسعادة ، ويدفع عنكم نزغات الشيطان ووساوسه لتظفروا بالحسنى في الدارين .

والخلاصة — إن في القرآن وحده غنى عن كل آية ، فلو أراد الله هدايتكم بصرف اختياركم إلى تحصيل أسبابها وكان لكم فيه مرشد أيما مرشد ، ولكن الله جعلكم سادرين في الضلالة لاتلون على شيء ، ولا ينفعكم إرشاد ولا نصح ، لسوء استعدادكم وكثرة لجاحكم وعنادكم ، ومن كانت هذه حاله فأنتي له أن يهتدى ولو جاءته كل آية ؟ كما قال : « وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ » وقال : « إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ . وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ » وقال : « وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ » .

أما من أقبلوا إلى الله وتأملاوا في دلائله الواضحة ، وسلكوا طرقه المعبدة ، فالله ينير بصائرهم ويشرح صدورهم ، وهم لا يبدوا ضلون إلى الفوز بالحسنى ، وحاصلون على السعادة في الدنيا والآخرة ، وهم من أشار إليهم بقوله :

(الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله) أى هم الذين آمنوا وركنت قلوبهم إلى جانب الله وسكنت حين ذكره ، وإذا عرض لهم الشك في وجوده ظهرت لهم دلائل وحدانيته في آيات وعجائب الكائنات ، فرضى به مولى ورضى به نصيرا ، ومن ثم قال :

(ألا بذكر الله تطمئن القلوب) أى ألا بذكر الله وحده تطمئن قلوب المؤمنين ويزول القلق والاضطراب من خشيتيه ، بما يفيضه عليها من نور الإيمان الذى يذهب الملح والوحشة ، وهى بمعنى قوله في الآية الأخرى : « ثُمَّ تَلَيْنَ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » .

فالمؤمنون إذا ذكروا عقاب الله ولم يأمّنوا من وقوعهم في المعاصى وجلت قلوبهم كما قال : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ » وإذا ذكروا وعده بالثواب والرحمة سكنت نفوسهم واطمأنت إلى ذلك الوعد وزال منها القلق والوحشة .

وفي الآية إيماء إلى أن الكفار أفئدتهم هواء إذ لم تسكن نفوسهم إلى ذكره ، بل سكنت إلى الدنيا وركنت إلى لذاتها .

ثم بين سبحانه جزاء المظمتين وثوابهم فقال :

(الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب) أى إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم القرح وقرّة العين عند ربهم وحسن المآب والمرجع .
وفي هذا من الترغيب في طاعته والتحذير من معصيته ومن شديد عقابه ما لا يخفاء فيه .

وخلاصة ذلك — إن أهل الجنة منعمون بكل ما يشتهون كما جاء في الحديث :
« فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » .

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ، قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠) وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرَتْ بِهِ الْمُوتَى ، بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ، أَفَلَمْ يَتَّبِعُوا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا ، وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِعَادَ (٣١) وَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ

لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى
 كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا
 لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَيَّظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ؟ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَمَكْرُهُمُ
 وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ، وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣) لَهُمْ عَذَابٌ فِي
 الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٣٤)

شرح المفردات

خات: مضت ، متاب: مرجعي ، قطعت : شققت ، بيأس : يعلم وهو لغة هوازن ،
 قارعة رزية تفرع القلوب ، أمليت : أى أهملت مدة طويلة فى أمن ودعة ، قائم :
 رقيب ومتول للأمر ، تنبئونه : تخبرونه ، بظاهر من القول : أى يبطل منه لإحتمية
 له فى الواقع ، والسبيل : هو سبيل الحق وطريقه ، والواقى : الحافظ .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه طلبهم من رسوله صلى الله عليه وسلم الآيات كما أنزل على
 الرسل السابقين موسى وعيسى وغيرهم من النبيين والمرسلين ، وبين أن الهدى هدى
 الله ، فلو أوتوا من الآيات ما أوتوا ولم يرد الله هدايتهم فلا يجدهم ذلك فتبلا ولا قظميرا ،
 ذكر هنا أن محمدا ليس يبدع من الرسل وأن قومه سبقهم أقوام كثيرون وطلبوا
 الآيات من أنبيائهم وأجابوهم إلى ما طلبوا ولم تنعمهم الآيات والنذر فكانت عاقبتهم
 البوار والنكال ، فأنزل على كل قوم من العذاب ما أتى عليهم جميعا وأصبحوا معه
 كأس الدابر؛ ولو أن كتابا تسير به الجبال عن أما كتبها أو تشقق به الأرض فتجعل
 أنهارا وعيوننا لكان هذا القرآن الذى أنزلناه عليه ، ثم أبان أن الله تعالى قادر
 على الإتيان بما اقترحوه لكنه لم يرد ذلك لأنه لا ينتج المقصود من إيمانهم .

ثم أتبع ذلك بالتيئيس منه وبالتهديد بقارعة تحل بهم ، وبتسليمه النبي صلى الله عليه وسلم على استهزائهم به .

أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وغيرهما عن الشعبي قال : قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن كنت نبيا كما تزعم فباعد جبلي مكة أخشيها (اسمى الجبلين) هذين مسيرة أربعة أيام أو خمسة ، فإنها ضيقة حتى نزرع فيها ونرعى ، وابتعث لنا آباءنا من الموقى حتى يكلمونا ويخبرونا أنك نبي ، أو احملنا إلى الشام أو اليمن أو إلى الحيرة حتى نذهب ونجىء في ليلة كما زعمت أنك فعلته فنزلت هذه الآية .

وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن ابن عباس أنهم قالوا : سئير بالقرآن الجبال ، قَطَّعَ بالقرآن الأرض ، أخرج به موتانا ، فنزلت .

الإيضاح

(كذلك أرسلناك في أمة قد دخلت من قبلها أم لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك) أى كما أرسلنا إلى الأمم الماضية رسلا فكذبوهم ، كذلك أرسلناك في هذه الأمة لتبليغهم رسالة الله إليهم ، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم .

وخلاصة ذلك — إننا كما أرسلنا إلى أم من قبلك وأعطيناهم كتبنا تتلى عليهم ، كذلك أرسلناك وأعطيناك هذا الكتاب لتتلوه عليهم ، فلماذا يقرحون غيره ؟ .

(وهم يكفرون بالرحمن) أى وحالهم أنهم كفروا بمن أحاطت بهم نعمه ، ووسعت كل شيء رحمة ، ولم يشكروا نعم فضله عليهم ولا سيما إحسانه إليهم بإرسالك وإنزال القرآن عليك وهو الكفيل بمصالح الدنيا والآخرة كما قال تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ » .

وكفرهم به أنهم جحدوه بتاتا أو أثبتوا له الشركاء .

(قل هو ربي لا إله إلا هو) أى قل لهم : إن الرحمن الذى كفرتم به هو خالق ومتولى أمرى ومبلغى مراتب الكمال . لا رب غيره ولا معبود سواه ، فهو الواحد الأحد الفرد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . وعن قتادة قال : « ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم زمن الحديبية حين صالح قريشا كتب فى الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم . فقالت قريش أما الرحمن فلا نعرفه ، وكان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم ، فقال أصحابه دعنا نقاتلهم ، قال لا ، اكتبوا كما يريدون » اهـ .

(عليه توكلت) أى عليه لا على غيره توكلت فى جميع أمورى ولا سيما فى نصرتى عليكم .

(وإليه متاب) أى وإليه وحده توبتى ، وهو بمعنى قوله : « وَاسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ » وفى هذا بيان لفضل التوبة ومقدار عظمتها عند الله ، وبعث للكفار على الرجوع عما هم عليه بأبلغ وجه وألطف سبيل ، إذ أمر بها عليه السلام وهو منزه عن إقرار الذنوب فتوبتهم وهم عاكفون على أنواع الكفر والمعاصى أحق وأجدر .

(ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) أى ولو ثبت أن كتابا سيرت بتلاوته الجبال وزعزعت من أما كتبها كما فعل بالطور لموسى عليه السلام .

(أو قطعت به الأرض) أى شققت وجعلت أنهارا وعيوننا كما حدث للحجر حين ضرب به موسى بعصاه .

(أو كلم به الموتى) أى أو كلم أحد به الموتى فى قبورهم بأن أحييهم بقراءته فتكلم معهم بعد كما وقع لعيسى عليه السلام - لو ثبت هذا الشيء من الكتب لثبت لهذا الكتاب الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لما انطوى عليه من الآيات الكونية الدالة على بديع صنع الله فى الأنفس والآفاق ، واشتمل عليه من الحكم والأحكام التى فيها صلاح البشر وسعادتهم فى الدار الفانية والدار الباقية ، ومن قوانين العمران التى تكون خيرا لمتبعيها وفوزا لساكنيها ، وتجعل منهم خيرا أمة

أخرجت للناس ، وهذا بمعنى قوله : « لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ » .

وخلاصة ذلك — لو أن ظهور أمثال ما اقترحوه مما تقتضيه الحكمة وتستدعيه

المصلحة ، لكان مظهر ذلك هو القرآن الذى لم يمدوه آية واقترحوا غيره .

ولا يخفى ما فى هذا من تعظيم شأنه الكريم ، ووصفهم بسخف العقل وسوء

التدبير والرأى ، وبيان أن تلك المقترحات لا ينبغي أن يؤبه لها ولا يلتفت إليها ،

لأنها صادرة عن التشهى والهوى والتماذى فى الضلال والمكابرة والمناد ، لاعن تقدير

للأمور على وجهها الصحيح وتأمل فى حقاقتها وما يجب أن يكون لها من الاعتبار .

ويجوز أن يكون المعنى — لو أن كتابا فعلت بوساطته هذه الأفاعيل العجيبة

لما آمنوا به لفرط عنادهم وغلوهم فى مكابرتهم ، وهذا بمعنى قوله : « وَلَوْ أَنَّ نَزَّلْنَا

إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيَوْمِهِمْ

إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ » .

(بل لله الأمر جميعا) أى بل مرجع الأمور كلها بيد الله ، ما شاء كان وما لم

يشأ لم يكن ، ومن يضل فلا هادى له ، ومن يهد فما له من مضل .

وخلاصة ذلك — إن الله قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآيات ، لكن

الإرادة لم تتعلق بذلك لعلمه أن قلوبهم لا تلتين ولا يجدى هذا فائدة فى إيمانهم .

(أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا) أى ألم يعلم الذين

آمنوا أن الله تعالى لو شاء هداية الناس أجمعين لهداهم ، فإنه ليس ثمة حجة ولا معجزة

أنجح فى العقول من هذا القرآن الذى لو أنزل على جبل لرأيت خاشعا متصدعا من

خشية الله ، لكنه لم يشأ ذلك .

روى البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبي إلا وقد

أوتى ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن

أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » يريد أن كل نبي انقضت معجزته بموته ، وهذا القرآن حجة باقية على وجه الدهر لاتنقض عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد ولا يشبع منه العلماء .

(ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة) أى ولا يزال الكافرون تصيبهم البلايا والزيايا من القتل والأسر والسلب والنهب بسبب تماديهم فى الكفر وتكذيبهم لك وإخراجك من بين أظهرهم .

(أو تحل قريبا من دارهم) أى أو تحل تلك القارعة قريبا من دارهم فيفزعون منها ويتطايروا شررها إليهم .

(حتى يأتى وعد الله) أى حتى ينجز الله وعده الذى وعدك فيهم بظهورك عليهم وفتحك أرضهم وقهرك إياهم بالسيف .

(إن الله لا يخلف الميعاد) أى إن الله منجز ما وعدك من النصر عليهم ، لأنه لا يخلف وعده كما قال : « فَلَا تُخَسِّنُ اللَّهُ مُخْلِفٍ وَعَدِهِ رُسُلُهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ » .

ولما كان الكفار يسألون النبي صلى الله عليه وسلم هذه الآيات على سبيل الاستهزاء والسخرية وكان ذلك يشق عليه ويتأذى من تلك الكلمات أنزل الله تسليمة له على سفاهة قومه قوله :

(ولقد استهزىء برسلك من قبلك) أى إن يستهزىء بك هؤلاء المشركون من قومك ويطلبوا منك الآيات تكذيبا لما جئتهم به فاصبر على أذاهم وامض لأمر ربك فلقد استهزأت أمم من قبلك برسلكهم .

ثم بين شأنه مع المكذبين فقال :

(فأمليت للذين كفروا) أى فتركهم ملاوة أى مدة من الزمان فى أمن ودعة كما يعلى للبهيمة فى المرعى .

(ثم أخذتهم فكيف كان عقاب) أى ثم أحلت بهم عذابي ونقمتى حين تبادوا
فى غيرهم وضلالهم ، فانظر كيف كان عقابي إيّاهم حين عاقبتهم - ألم أذقهم ألم
العذاب ، وأجعلهم عبرة لأولى الألباب ؟ .

وقد صدق الله وعده ونصر رسوله على عدوه ، فدخل فى دين الله من دخل
ومن أبى قتل ، ودانت العرب كلها له وانضوت تحت لوائه وحقت عليهم كلمة ربك .
وفى هذا تعجب مما حل بهم ودلالة على شدته وفضاعة أمره كما لا يخفى .

ثم ذكر سبحانه ما يجرى مجرى الحجاج عليهم وما فيه توبيخ لهم وتعجيب
من عقولهم ، وكيف إنها وصلت إلى حد لا ينبغى لعاقل أن يقبله ولا يرضى به فقال :
(أمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) أى أفن هو قائم بحفظ أرزاق الخلق
ومتولى أمورهم وعالم بهم وبما يكسبونه من الأعمال من خير أو شر ولا يعزب عنه
شىء - كمن ليس بهذه الصفة من معبوداتكم التى لاتسمع ولا تبصر ولا تدفع عن
نفسها ولا عن يعبدها ضرا ولا تجلب لهم نفعاً .

وخلاصة ذلك - إنه لا عجب من إنكارهم لآياتك الباهرة مع ظهورها ، وإنما
العجب كل العجب من جعلهم القادر على إنزالها المجازى لهم على إعراضهم عن تدبر
معانيها - بقوارع تنرى واحدة بعد أخرى يشاهدونها رأى العين - كمن لا يملك لنفسه
نفعاً ولا ضراً فضلاً عن اتخاذ ربا يرجى نفعه أو يخشى ضرره .

ونحو الآية قوله : « وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَدْعُهَا » وقوله : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ
فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ »
وقوله : « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » .

ثم أكد هذا بقوله :

(وجعلوا لله شركاء) عبدها معه من أصنام وأوثان وأنداد

ثم أعقب ذلك بتوبيخ إثر توبيخ فقال :

(قل سموهم) أى صفوهم فهل لهم ما يستحقون به العبادة ويستأهلون الشركة ، وقد يكون المعنى سموهم من هم وما أسماؤهم ؟ فإنهم ليسوا ممن يذكر ويسمى ، فإنما يسمى من ينفع ويضر .

(أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض) أى بل أتخبرونه بشركاء يستحقون العبادة لا يعلمهم ، أو تخبرونه بصفات لهم يستحقون لأجلها العبادة وهو لا يعلمها ، وفى هذا نفي لوجودها لأنها لو كانت موجودة لعلمها لأنه لا تخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

(أم بظاهر من القول) أى بل أتسمونهم شركاء ظنا منكم أنها تنفع وتضر ، كما تسمونهم آلهة كما قال : « إِنَّ هِيَ إِلَّا الْأَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى » .

وخلاصة حجاجه على المشركين — نفي الدليل العقلى والدليل النقلى على أحقية عبادتها — فبعد أن هدم قاعدة الإشراف بقوله : (أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) زاد ذلك إيضاحا فقال : وليتهم إذ أشركوا بربهم الذى لا ينبغي أن يشرك به — أشركوا به من له حقيقة واعتبار ومن ينفع ويضر ، لامن لا اسم له فضلا عن المسمى ، بل من لا يعرف له وجود فى الأرض ولا فى السماء ، ويريدون أن ينبئوا عالم السر والنجوى بما لا يعلمه ، ثم زاد على ذلك فقال : وما تلك التسمية إلا بظاهر من القول من غير أن يكون تحتها طائل وماهى إلا أصوات جوفاء كثيرة المباني خالية من المعانى .

(بل زين للذين كفروا مكرهم) أى دع هذا الحجاج وألق به جانبا فإنه لا فائدة فيه ، لأنه زين لهم كيدهم لاستسلامهم للشرك وتماديهم فى الضلال .
(وصدوا عن السبيل) أى وصدوا عن سبيل الحق بما زين لهم من صحة ما هم عليه .

(وَمَنْ يَضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) أى ومن يخذله الله لسوء اعتقاده وفساد أعماله . واجترأه للأثام والمعاصى فلا هادى له يوفقه إلى النجاة ويوصله إلى طرق السعادة . ونحو الآية قوله: « وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا » وقوله : « إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ » . ثم بين عاقبة أمرهم فقال :

(لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أى لهم عذاب شاق في هذه الحياة بالقتل والأسر . وسائر الآفات التى يصيبهم بها .

(وَلِعَذَابِ الْآخِرَةِ أَشَقُّ) أى ولتعذيب الله إياهم في الدار الآخرة أشد من تعذيبه إياهم في الدنيا وأشق لشدته ودوامه .

ثم أيأسهم من صرف العذاب عنهم فقال :

(وما لهم من الله من واق) أى وما لهم حافظ يعصمهم من عذاب الله ، إذ لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، ولا يأذن لأحد في الشفاعة لمن كفر به ومات على كفره .

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ، تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ ، قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ، وَلَنْ تُبْعَثَ أَهْوَاءُهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً ، وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ

اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ
الْكِتَابِ (٣٩) .

شرح المفردات

المثل : الصفة والنعمة ، والأكل : مأيؤ كل ، والظل : واحد الظلال والظالم
والأطلال ، والأحزاب : واحد حزب ، وهو الطائفة المنتزعة أى المجتمعة لشأن
من الشؤون كحرب أو عداوة أو نحو ذلك ، والمآب : المرجع ، والواقى : الحافظ ،
والأجل : الوقت والمدة ، والكتاب : الحكم المعين الذى يكتب على العباد على
حسب ما تقتضيه الحكمة ، والمحو : ذهاب أثر الكتابة ، وأم الكتاب : أصله
وهو علم الله تعالى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما أعده للكافرين من العذاب والنكال فى الدنيا والآخرة -
أتبعه بذكر ثواب المتقين فى جنات تجري من تحتها الأنهار ، ثم أردفه بذكر فرح
المؤمنين من أهل الكتاب بما أنزل عليه من ربه ، وإنكار بعض منهم لذلك ، ثم حث
الرسول صلى الله عليه وسلم على القيام بحق الرسالة وتحذيره من مخالفة أوامره ، ثم ختم
هذا بذكر الجواب عن شبهات كانوا يوردونها لإبطال نبوته صلى الله عليه وسلم
كقولهم : إنه كثير الزوجات ، ولو كان رسولا من عند الله لما اشتغل بأمر النساء .

وخلاصة الجواب -- إن محمدا ليس ببدع من الرسل ، فكثير منهم كان له أزواج
وذرية ولم يقدح ذلك فى رسالتهم ، وكقولهم : إنه لو كان رسولا من عند الله لم يتوقف
فيما يطلب منه من المعجزات ، فأجيبوا بأن أمر المعجزات مفوض إلى الله إن شاء
أظهرها وإن شاء لم يظهرها ، ولا اعتراض لأحد عليه ، وقولهم : إن ما نخوفنا به من
العذاب وظهور النصره له ولقومه لم يتحقق بعد فليس بنبي ولا صادق فيما يقول ،

فأجيبوا عن ذلك بقوله : لكل أجل كتاب : أى إن لكل حادث وقتاً معيناً لا يتقدم عنه ولا يتأخر ، فتأخر المواعيد لا يدل على ما تدعون .

الإيضاح

(مثل الجنة التى وعد المتقون) أى فيما نقصه عليك صفة الجنة التى وعد الله للمتقين وأعطاهم إياها كفاء إخبارهم له وإنابتهم إليه ودعائهم إياه مخلصين له الدين لا شريك له .

(تجرى من تحتها الأنهار) سارحة فى أرجائها وجوانبها يصرفونها كيف شاءوا وأين أرادوا .

(أكلها دائم) أى فيها الفواكه والمطاعم والمشارب التى لا تنقطع عنهم ولا تبذل . (وظلها) كذلك ، فليس هناك حر ولا برد ولا شمس ولا قمر ولا ظلمة كما قال تعالى : « لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمَهْرِيرًا » .

وبعد أن وصف الجنة بهذه الصفات الثلاث - بين أنها مآل المتقين ومنتهى أمرهم فقال :

(تلك عقبي الذين اتقوا) أى هذه الجنة عاقبة من اتقوا ربهم فأقلعوا عن الكفر والمعاصى واجتراح السيئات ، وعنت وجوههم للحى القيوم وخافوا يوماً تشيب من هوله الولدان وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد .

ثم بين عاقبة الكافرين بعد ما بين عاقبة المتقين فقال :

(وعقبى الكافرين النار) أى وعاقبة الكافرين بالله النار ، بما اقترفوا من الذنوب ودنسوا به أنفسهم من الآثام .

وفى الآية فتح باب الطمع على مصراعيه للمتقين ، وإقفاله بالرئاج على الكافرين .

ثم بين أن أهل الكتاب انقسموا فئتين : فئة فرحت بنزول القرآن وفرقة أنكرته

وكفرت ببعضه فقال :

(والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك) من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به كما قال تعالى: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ» وهم جماعة ممن آمن من اليهود كهبد الله ابن سلام وأصحابه، ومن النصارى وهم ثمانون رجلا من الحبشة واليمن ونجران.

(ومن الأحزاب من ينكر بعضه) أى ومن جماعتهم الذين تحزبوا وتألبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة ككعب بن الأشرف والسيد والعاقب أسقى نجران وأشياهم - من أنكر بعض القرآن وهو مالم يوافق ما حرفوه من كتابهم وشرائعهم.

ولما ذكر سبحانه اختلاف أهل الكتاب في شأنه صلى الله عليه وسلم - بين بايجاز ما يحتاج إليه المرء ليفوز بالسعادتين فقال:

(قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به) أى قل لهم صادعا بالحق ولا تكثرث بمن ينكره: إني أمرت فيما أنزل إلى بأن أعبد الله وحده ولا أشرك به شيئا سواه، وذلك ما لا سبيل إلى إنكاره وأطبقت عليه الشرائع والكتب كما قال: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا» وذلك ما دلت الدلائل التي في الآفاق والأنفس على وجوب الإذعان له والاعتراف به. وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

(إليه أَدْعُو) أى إلى طاعته وإخلاص العبادة له وحده أَدْعُو الناس.

(وإليه مَأْب) أى وإليه وحده مرجعى ومصيرى ومصيركم للجزاء، ولا خلاف بيننا في هذا، فالعجب لكم أن تنكروا المتفق عليه وتختلفوا فيما لا محل للخلاف فيه.

وهذه الآية جامعة لشؤون النشأة الأولى والآخرة، فقوله: (قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به) توحى إلى ما جاء به التكليف، وقوله (إليه أَدْعُو) تشير إلى مهام الرسالة، وقوله: (وإليه مَأْب) تشير إلى البعث والجزاء للحساب يوم القيامة.

ثم بين سبحانه أنه أرسل رسوله بلغة قومه كما أرسل من قبله رسلا بلغات أقوامهم فقال :

(وكذلك أنزلناه حكما عربيا) أى وكما أرسلنا قبلك المرسلين وأنزلنا عليهم الكتب ، أنزلنا عليك القرآن حكما عربيا بلسانك ولسان قومك ليسهل عليهم تفهم معناه واستظهاره . وسمى القرآن حكما : أى فصلا للأمر على وجه الحق - لأن فيه بيان الحلال والحرام وجميع ما يحتاج إليه المسكئون ليصلوا إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

وقد جاء بمعنى الآية قوله : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ » .

ثم إن أهل مكة دعوه إلى أمور يشاركون فيها فقال :

(ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم) أى ولئن اتبعت أهواء هؤلاء الأحزاب ابتغاء رضاهم كالتوجه إلى قبلتهم وعدم مخالفتهم فى شىء مما يعتقدونه . (مالك من الله من ولى ولا واق) أى ليس لك من دون الله ولى ولا ناصر ينصرك فينة ذلك منه إن هو أراد عقابك ، ولا واق يقيق عذابه إن هو عذبك ، فاحذر أن تتبع أهواءهم وتتهيج بهجهم وقد تقدم أن مثل هذا من وادى قولهم : (إياك أعنى واسمعى يا جاره) فهو إنما جاء لقطع أطماع الكافرين وتهيج المؤمنين على الثبات فى الدين لا للنبى صلى الله عليه وسلم فهو بمكان لا يحتاج فيه إلى باعث ولا مبهيج . وتزل : لما عابت اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم بكثرة النساء ، فقالوا لو كان نبيا كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء .

(ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية) أى وكما أرسلناك رسولا بشرى ، كذلك بعثنا المرسلين قبلك بشرى بأن يكون الطعام ويمشون فى الأسواق ويأتون الزوجات ويولد لهم .

أوفى الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « أما أنا فأصوم وأفطر وأقوم وأنام وآكل اللحم وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » .
وقد كان من حكمة تعدد زوجاته أمهات المؤمنين أن اطلعن منه على الأحوال الخفية التي تكون بين الرجل والمرأة . وعلمن منه أحكامها ونشرنها بين المؤمنين ، وناهيك بأمر المؤمنين عائشة وفيها يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « خذوا نصف دينكم عن هذه الخيراء » ومن ثم كانت أكثر من حدث عن رسول الله بعد أبي هريرة وأكثر من حدث عن شمائله وأخلاقه في السر والعلن ، ومنها علم المسلمون كثيرا من أحكام دينهم ، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يختلفون إليها للحديث والفتيا وكانت تصاجهم وتجادهم وتلزمهم الحجة ولا يجحدون معدلا عن التسليم برأيها .
وروى أن المشركين طعنوا في نبوته لعدم إتيانه بما يقترحونه من الآيات فنزل قوله :

(وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله) أى وما كان في وسع رسول من الرسل أن يأتي من أرسل إليهم بمعجزة يقترحونها إلا متى شاء الله وعلم أن في الإتيان بها حكا ومصالح لعباده ، وقد جاء من الآيات بما فيه عبرة لمن اعتبر وغناء لمن تفكر وتدبر ، ولكنهم أبوا إلا التماذى في الغواية والضلال كما تقدم من مقال عبد الله ابن أبي أمية .

والآيات المقترحة لاتأتى إلا على مقتضى الحكمة في أزمان يعلمها الله ، وقد جعل لكل زمن من الأحكام ما فيه الصلاح والخير للناس ، ولا صلاح فيما اقترحوه ، وهل من الصلاح أن يرضع المراهق اللبن من ظئره أو أن يجعل له مهد ينام فيه ؟ كذلك لاحكمة في إنزال الآيات التي اقترحوها ، وهذا إيضاح قوله :

(لكل أجل كتاب) أى لكل كتاب أجل أى لكل أمر كتبه الله أجل معين ووقت معلوم ، فلا آية من المقترحات بنازلة قبل أوانها ، ولا عذاب بما خوفوا به محاصل في غير وقته ، ولا نبوة بحاصلة في غير الزمان المقدر لها ، فموسى وعيسى

ومحمد عليهم السلام جاءوا فى أزمنة رأى الله الصلاح فى وجودهم فيها لا يتقدمون عنها ولا يتأخرون ، وهكذا انقضاء أعمار الناس ووقوع أعمالهم وآجالهم ، كلها كتبت فى آجال ومدد معينة لا تتقدم فيها ولا تأخير ونحو الآية قوله (لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ) .

فما مثل الدنيا من كواكبها وشمسها وأرضها وزرعها إلا مثل مصنع رتبت أعماله ووضعت عماله فى حجر معينة ووزع بينهم العمل على نظم خاصة فى أوقات معينة ولهم مناهج يتبعونها فتراهم كل يوم يعملون وينصرفون من أما كتبهم ثم يغفدون إليها على نهج لا يتغير ولا يتبدل ، فالدنيا قد جعل الله لها نظاما على مقتضى الحقائق الثابتة التى تعلق بها علمه ، وعلى هذا النظام جرت الشمس والقمر والكواكب وظهر النبات والحيوان وتعاقب الموت والحياة ، وظهرت نجوم وفنيت أخرى ونبت زرع وحصد آخر ومات نبي وقام آخر وامتد دين وانتشر وتخلص دين ونسخ .

وكل كوكب من الكواكب التى تصلح للحياة كأرضنا كأنه صحيفة يكتب فيها ويمحى ، وذلك تابع لما فى المنهج الأصلى ، ومن ثم تتعاقب الأمم والأجيال والدول والنظم على قطر كعصر فيتعاقب عليه قدماء المصريين واليونان والرومان ، ولا شك أن كل هذا محو وإثبات على مقتضى المنهج المرسوم ، وهكذا تنسخ آية من القرون ويؤتى غيرها كما ينسخ زرع بزراع وليل بنهار ، وقوم بقوم ، ودين نبي بآخر فى ميقاته المعين فى علمه تعالى ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله :

(يحو الله ما يشاء ويثبت) وقد أثر عن أئمة السلف فيها أقوال لا تناقض فيها

بل هى داخله فيما سلف :

- (١) قال الحسن : يحو الله من جاء أجله ويثبت من بقى أجله .
- (٢) وقال عكرمة : يحو الله القمر ويثبت الشمس .
- (٣) وقال الربيع : يقبض الله الأرواح حين النوم فيميت من يشاء ويمحوه ويرجع من يشاء فيثبته .
- (٤) وقال السدى : يحو الله القمر ويثبت الشمس .

(٥) وقال آخرون : يحو الله ما يشاء من الشرائع بالنسخ ويثبت ما يشاء فلا ينسخه ولا يبده .

(٦) وقال آخر : يحو الله الحن والمضايب بالدعاء .
(وعنده أم الكتاب) هو علم الله ، وجميع ما يكتب في صحف الملائكة لا يقع حتما يقع إلا موافقا لما يثبت فيه فهو أم لذلك فكأنه قيل يحو ما يشاء محوه ويثبت ما يشاء وهو ثابت عنده في علمه الأزلي الذي لا يكون شيء إلا على وفق ما فيه .

وَإِنَّمَا تُرِينَك بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْفُضُهَا مِنْ
أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) وَقَدْ
مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ
وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا
قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣) .

شرح المفردات

الأطراف : الجوانب ، المعقب : الذي يكرر على الشيء فيبطله ، ويقال لصاحب الحق معقب لأنه يتقو غريمه بالاعتضاء والطلب ، والمكر : إرادة المكره في خفية ، وعقبي الدار : أي العاقبة الحميدة ، والأم : أصل الشيء وما يجري مجراه كأم الرأس للدماغ وأم القرى لمكة .

المعنى الجملي

سبق أن ذكر أنهم اقترحوا عليه الآيات استمراء به وطلبوا استعجال السيئة التي توعدهم بها، وكان صلى الله عليه وسلم يتقى وقوع بعض ما توعدوا به ليكون زاجرا

لغيرهم ، ذكر هنا لرسوله أن وظيفته التبليغ ولا يهمه ما سبواهم من الجزاء فعلينا حسابهم ، وهل هم في شك من حصول ما توعدناهم به وهم يرون بلادهم تنقص من جوانبها بفتح المسلمين لها وقتل أهلها وأسبغهم وتشريدهم ، والله يحكم في خلقه كما يريد وقد حكم للمسلمين بالعرز والإقبال ، وعلى أعدائهم بالتهر والإذلال - ثم بين أن قومه ليسوا ببدع في الأمم فقد مكر من قبلهم بأنبيائهم ولم يكن مكرهم ليضيرهم شيئا فكانت العاقبة للمتقين ، وأهلك الله القوم الظالمين ، وسيعلم الكافرون حين يحل بهم العذاب ، لمن حسن العاقبة ؟ ثم ذكر إنكار اليهود لرسالته وأمره بالجواب عن ذلك بأن الله شهد له بأنه صادق فيها وأيده بالأدلة والحجج وفي شهادته غنى عن شهادة أى شاهد آخر ، وكذلك شهد من آمن من أهل الكتاب بأنهم يجدون وصفه في كتبهم .

الإيضاح

(وإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلما عليك البلاغ وعلينا الحساب) أى إن ترك أيها الرسول في حياتك بعض الذي نعده هؤلاء المشركين بالله من العقاب على كفرهم ، أو تتوفاك قبل أن نريك ذلك ، فما عليك إلا تبليغ رسالة ربك لا طالب صلاحهم ولا فسادهم ، وعلينا محاسبتهم ومجازاتهم بأعمالهم إن خيرا نغير وإن شرا فشر ، ونحو الآية قوله تعالى : « فَذَكَرْهُمْ إِذْ لَمَّا أَنتَ مَذْكُورٌ . لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ . فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ . إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ » .

(أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها ؟) أى أشك أولئك للمشركون من أهل مكة الذين يسألونك الآيات ، ولم يروا أنا نأتى الأرض فننقصها لك أرضا بعد أرض ونلحقها بدار الإسلام ونذهب منها أهلها بالقتل والأسر والإجلاء ؟ أليس هذا مقدمة لما أوعدناهم بحصوله ، ونذيرا بما سيحل بهم من النكال والوبال في الدنيا والآخرة لو تدبروا ، فما لهم عن التذكرة معرضين ؟ .

ونحو الآية قوله : « أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ؟ » .

(والله يحكم لامعقب لحكمه) أى والله يحكم وحكمه النافذ الذى لا يرد ، ولا يستطيع أحد أن يبطله وقد جرت سنته أن الأرض يستعمرها عباده الصالحون بالعدل فيها والتسوية على نهج المساواة وترك الظلم ، وقد حكم للمسلمين بالعز والإقبال على ما وضع من السنن العامة ، وعلى أعدائهم بالإدبار وركود ريجهم لما سلكوه من الظلم والفساد فى الأرض .

(وهو سريع الحساب) فعما قريب سيحاسبهم فى الآخرة كفاء ما دنسوا به أنفسهم ووران على قلوبهم بارتكاب الآثام بعد أن يعذبهم فى الدنيا بالقتل والأسر ، فلا تستبطن عقابهم فإنه آت لا محالة ، وكل آت قريب .

ثم بين أن قومه ليسوا يندع فى الأمم فقد مكر كثير من قبليهم بأنبيائهم فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر فقال :

(وقد مكر الذين من قبليهم) أى وقد مكر كثير من كفار الأمم الماضية بأنبيائهم كما فعل تمروذ بإبراهيم وفرعون بموسى واليهود بعيسى ثم دارت الدائرة على الظالمين وأهلك الله المفسدين .

وفى هذا تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتصبير بأن العقاب لا محالة له . (فله المنكر جميعا) أى إن مكر الماكرين لا يضر إلا بإذنه تعالى ولا يؤثر

الإبتدیره ، فيجب ألا يكون الخوف لإمته تعالى . وفى هذا أمان له صلى الله عليه وسلم من مكرهم .

(يعلم ما تكسب كل نفس) فيعصم أوليائه ويعاقب الماكرين بهم ليوفى كل نفس جزاء ما كسبت .

وفى هذا ما لا يخفى من شديد الوعيد والتهديد للكافرين الماكرين . ثم أكد هذا التهديد بقوله :

(وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار) أى وسيعلم الكفار إذا قدموا إلى ربهم يوم القيامة حين يدخل الرسول والمؤمنون الجنة ويدخلون النار ، لمن العاقبة المحمودة إذ ذاك وإن جهلوا ذلك من قبل ؟ .

أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أسقف من اليمن فقال له عليه السلام هل تجدنى فى الإنجيل رسولا؟ قال لا فأُنزل الله تعالى :

(ويقول الذين كفروا لست مرسلًا) أى ويقول الجاحدون لنبوتك ، الكافرون برسالتك ، لست رسولا من عند الله أرسلك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور وتدعوهم إلى عبادة إله واحد لا شريك له وتنقذهم من عبادة الأصنام والأوثان وتصلح حال المجتمع البشرى وتمنع عنه الظلم والفساد .

(قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم) أى قل حسبي الله شاهدا بتأييد رسالتى وصدق مقالتي إذ أنزل على هذا الكتاب الذى أعجز البشر قاطبة أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .

(ومن عنده علم الكتاب) وهم من أسلم من أهل الكتابين التوراة والإنجيل كعبد الله بن سلام وأضرابه فإنهم يشهدون ببعثته فى كتابهم .

أخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة قال : كان من أهل الكتاب قوم يشهدون بالحق ويعرفونه ، منهم عبد الله بن سلام والجارود وتميم الدارى وسلمان الفارسي رضى الله عنهم .

خلاصة لهذه السورة

ترى مما تقدم فى تفسير هذه السورة أنها اشتملت على الأمور الآتية :

(١) إقامة الأدلة على التوحيد بما يرى من خلق السموات والأرض والجبال والأنهار والزرع والنبات على اختلاف ألوانه وأشكاله ، وهذا تفصيل لما أجمله فى السورة

قبلها من قوله : « وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ » .

(٢) إثبات البعث ويوم القيامة ، والتعجب من إنكارهم له .

(٣) استعجابهم العذاب من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبيان أنه واقع بهم لاجتماعه كما وقع لمن قبلهم من الأمم الغابرة .

(٤) بيان أن للإنسان ملائكة تحفظه وتحرسه وتكتب عليه ما يكتبه من الحسنات والسيئات بأمر الله .

(٥) ضرب الأمثال لمن يعبد الله وحده ولمن يعبد الأصنام بالسبيل والزبد الرابى .

(٦) بيان حال المتقين الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب وأقاموا الصلاة وأنفقوا فى السر والعلن ، وبيان ما لهم يوم القيامة .

(٧) بيان حال الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويفسدون فى الأرض وبيان ما لهم .

(٨) إنكار الشركاء مع إقامة الأدلة على أن لا شريك لله .

(٩) وصف الجنة التى وعد بها المتقون وبيان أنها ما آل المتقين وما آل الكافرين النار وبئس القرار .

(١٠) بيان أن كثيرا ممن أساموا من أهل الكتاب يفرجون بما ينزل من القرآن إذ يرون فيه تصديقا لما بين أيديهم من الكتاب .

(١١) بيان مهمة الرسول وأن خلاصة ما جاء به - عبادة الله وحده ، وعدم الشرك به ، ودعاؤه لطلب النفع ودفع الضر وأن إليه المرجع والمآب .

(١٢) بيان أن كل رسول أرسل بلغة قومه ليسهل عليهم قبول دعوته وفهما .

(١٣) تحذير الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته من قبول دعوة المشركين من بعد ما جاءهم من العلم .

(١٤) إن جميع الرسل صلوات الله عليهم كان لهم أزواج وذرية .

(١٥) إن المعجزات ليست بمشيئة الرسل يفعلونها كلما أرادوا ، وإنما هي بإذن الله وإرادته .

(١٦) بيان أن هذه الحياة الدنيا إنما هي محور وإثبات وموت وحياة فيزيل الله قوما ويوجد آخرين ، وكل ذلك محفوظ في علم الله الذي لا تغيير فيه ولا تبديل .

(١٧) إن مهمة الرسل إنما هي التبليغ ، أما الجزاء على مخالفة الأوامر فأمر ذلك إلى الله ولا يعنى الرسول أن يحصل في زمنه أو بعد وفاته .

(١٨) إن انتقام الله من المكذبين قد بدأ في حياة الرسول بقتل أعدائه وأسره وتشريدهم في البلاد .

(١٩) إن مكر أولئك الكافرين بالرسول ليس بيدع جديد ، فكثير من الأمم السابقة مكروا بأنبيائهم وكان النضر حليف المتقين ونكل الله بالقوم الظالمين .

(٢٠) إلخاف الكافرين في إنكار رسالته صلى الله عليه وسلم ، مع بيان أن الله شهيد على ذلك بما أقام من الأدلة على صدقه ، وكذلك شهادة من آمن من أهل الكتاب بوجود أمارات رسالته صلى الله عليه وسلم في كتبهم وتبشيرها بها .

سورة إبراهيم

هي مكية وعدد آياتها ثنتان وخمسون .

وارتباطها بالسورة قبلها من وجوه :

(١) إنه قد ذكر في السورة السابقة أنه أنزل القرآن حكما عربيا ولم يصرح

بحكمة ذلك وصرح بها هنا .

(٢) إنه ذكر في السورة السالفة قوله : « وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ

إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » وهنا ذكر أن الرسل قالوا : « مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ

إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ » .

(٣) ذكر هناك أمره عليه السلام بالتوكل على الله ، وهنا حكي عن إخوانه

المسلمين أمرهم بالتوكل عليه جل شأنه .

(٤) اشتملت تلك على تمثيل الحق والباطل ، واشتملت هذه على ذلك أيضا .

(٥) ذكر هناك رفع السماء بغير عمد ومد الأرض وتسخير الشمس والقمر ،

وذكر هنا نحو ذلك .

(٦) ذكر هناك مكر الكفار وذكر مثله هنا ، وذكر من وصفه ما لم يذكر هناك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ

بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا

فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ

الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ

فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ
فِيضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) .

شرح المفردات

الظلمات : الضلالات ، والنور : الهدى ، وإذن ربهم : تيسيره وتوفيقه ،
والعزيز : الغالب ، والحديد : الحمود المثنى عليه بحمده لنفسه أزلا و بحمد عباده له أبدا ،
ويل : هلاك ، يستحبون : يختارون ، سبيل الله : هو دينه الذي ارتضاه ، يبغونها :
يطلبون لها ، عوجا : زيبغا وعوجاجا ، واللسان : اللغة .

الإيضاح

(الر) تقدم منا أن بينا في سورتي يونس وهود طريق قراءته والمعنى المراد منه
بما أغنى عن إعادته هنا .

(كتاب أنزلناه إليك) أى هذا كتاب أنزلناه إليك أيها الرسول .

(لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) أى لتتقذ الناس من ظلمات الضلالة
والكفر إلى نور الإيمان وضيائه ، وتبصر به أهل الجهل والعمى ، سبيل الرشاد والهدى ،
بما اشتمل عليه من واضح الآيات البينات المرشدة إلى النظر في حقائق الكون الدالة
على وحدانية الله تعالى وأنه لا شريك له وأن الواجب عبادته وحده ، ثم دعاؤه لطلب
النفع وكشف الضر ، وفيها أيضا سعادة البشر وصلاحهم في الدنيا والآخرة .

(إذن ربهم) أى بتوفيقه ولطفه بهم ، بإرسال نور الهدى إلى قلوبهم
فيسلكون طرق الفلاح والصلاح .

(إلى صراط العزيز الحميد) أى إلى الصراط المستقيم وهو الطريق الذي ارتضاه
الله خلقتهم وشرعهم ، وهو العزيز الذي لا يغالب ، الحمود في جميع أفعاله وأقواله
وأمره ونهيه .

وتحو الآية قوله : اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ،
وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ « الآية ،
وقوله : « هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ
إِلَى النُّورِ » الآية .

ثم بين ما سلف بقوله :

(اللهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) أى هو الله المتصف بملك ما فيهما
خلقاً وملكاً وتصرفاً وتديراً .

وهذه الجملة الدالة على عظمة خالق الأكوان ، وأنه المنفرد بالعظمة والسلطان ،
قد كورت في كثير من سور الكتاب الكريم للتنبيه إلى أن من أهم مقاصد هذا
الدين أن يكون في المسلمين حكاء ربايون يتفهمون حقائق هذا الكون ويدركون
أسرار بدائعه ، ويستخرجون للناس ما في باطن الأرض وينتفعون بما في ظاهرها ،
ويتأملون فيما في السموات من بديع الصنع وما تقدمه لنا من الخير العميم الذى ينتفع
منه الإنسان والحيوان في ما كايما ومشربهما ومسكنهما وسائر حاجتهما ومراقبتهما .
وجاء في سورة يوسف قوله تعالى توبيخاً للعافلين وحثاً لهم المستبصرين :
« وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ » .

ومع كل هذا قوا أسفا رأينا كثيرا من المسلمين الذين تتلى عليهم هذه الآية صباح
مساء - يكتفون بمجرد تلاوتها والإيمان بها دون بحث ولا تفهم لمغزاها ولا المراد منها
والاستبصار بما تنطوى عليه من المقاصد والمرامى ، ولو كان ذلك كافيا لكان ذكر
الخبز حين الجوع كافيا في الشيع ، والنظر إلى الماء كافيا في الرى .

ثم توعد الذين جحدوا آياته وكفروا بوحدانيته فقال :

(وويل للكافرين من عذاب شديد) أى وهلاك بشديد العذاب يوم القيامة ،
لمن كفر بك ولم يستجب دعوتك بإخلاص التوحيد لخالق السموات والأرض ،

وترك عبادة من لا يملك لنفسه شيئاً ، بل هو مملوك له تعالى لأنه بعض مافي السموات والأرض .

ثم وصف سبحانه أولئك الكافرين بصفات ثلاث .

(١) (الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة) أى إن أولئك الكافرين يطلبون الدنيا ويعملون لها ويتمتعون بلذاتها ويقترفون الآثام ويرتكبون الموبقات ويؤثرون ذلك على أعمال الآخرة التي تقر بهم إلى الله زلفى وينسون يوماً تجازى فيه كل نفس بما عملت ، يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه وفصيلته التي تؤويه ومن فى الأرض جميعاً .

(٢) (ويصدون عن سبيل الله) أى ويمنعون من تتجه عزائمهم إلى الإيمان بالله واتباع رسوله فيما جاء به من عنده ، أن يؤمنوا به ويتبعوه ، لما زين لهم الشيطان من سلوك سبيل الطغيان ، وران على قلوبهم من الفجور والعصيان ، والبعد عن كل ما يقرب إلى الرحمن .

(٣) (ويبغونها عوجاً) أى ويطلبون لها الزيغ والعوج وهى أبعد ما يكون من ذلك ، فيقولون لمن يريدون صدمهم وإضلالهم عن سبيل الله ودينه ، إن ذلك الدين ناء عن الصراط المستقيم وزائع عن الحق واليقين ، وإنك لتسمع كثيراً من الملحدين يقول إن القوانين الإسلامية فى الحدود والجنائيات شديدة غاية الشدة وإنما تصلح للأمم العربية فى البداية ، لا للأمم التي أخذت قسطاً عظيماً من الحضارة : « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا » فتلک شريعة دانت لها أمة غيرت وجه البسيطة وملكت ناصية العالم ردحاً من الزمان وكانت مضرب الأمثال فى العدل وترك الجور وثلت غروشن الأكامرة والقياصرة وامتلكت بلادهم وأزالت عزهم وسلطانهم ، إلى أن غير أهلها معالمها فأركسهم الله بما كسبوا ، فبدل عزهم ذلاً وسعادتهم شقاءً ، وتلك سنة الله ، إن الأرض يرثها عباده الصالحون لاستعمارها ، ثم حكم عليهم بما يستحقون فقتال :

(أولئك في ضلال بعيد) أى فهم باختيارهم لأنفسهم حب العاجلة وصددهم عن الدين وابتغائهم له الزيف والوعوج - في ضلال بعيد عن الحق لا يرجى لهم فلاح ، وأنى لهم ذلك وقد كبوا على وجوههم وزين لهم الفساد والغى فيرون حسنا ما ليس بالحسن وقبيحا ما ليس بالقبيح ؟ .

ثم بين سبحانه كمال نعمته وإحسانه على عباده فذكر أنه يرسل رسلا إلى أقوامهم بلغاتهم كي لا يشق عليهم فهم الدين وحفظه فقال :

(وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) أى وما أرسلنا رسولا إلى أمة من الأمم من قبلك وقبل قومك إلا بلغة قومه الذين أرسلناهم إليهم ليفهمهم ما أرسل به إليهم من أمره ونهييه بسهولة ويسر ، ولتقوم عليهم الحجة وينقطع العذر وقد جاء هذا الكتاب بلغتهم وهو يتلى عليهم ، فأى عذر لهم في ألا يفقهوه ، وما الذى صددهم عن أن يدرسوه ، ليعلموا ما فيه من حكم وأحكام ، وحلال وحرام ، وإصلاح لنظم المجتمع ليسعدوا في حياتهم الدنيا والآخرة ؟ .

والنبي صلى الله عليه وسلم وإن أرسل إلى الناس جميعا وبلغاتهم متباينة وأستهم مختلفة ، فأرساله بلسان قومه أولى من إرساله بلسان غيرهم ، لأنهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم ويوضحونه لهم حتى يصير مفهومها لهم كما فهموه ، ولو نزل بلغات من أرسل إليهم وبينه لكل قوم بلسانهم لكان ذلك مظنة للاختلاف ، وفتحنا لباب التنازع ، لأن كل أمة قد تدعى من المعانى في لسانها ما لا يعرفه غيرها ، وقد يقضى ذلك إلى التحريف والتصحيف بسبب الدعاوى الباطلة التى يقع فيها المتعصبون .

وبعد أن بين سبحانه أنه لم يكن للناس من عذر في عدم فهم شرائعه - ذكر أن الهداية والإضلال بيد الله ومشيئته فقال :

(فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء) أى إن الناس فريقان : فريق هداه الله وأضاء نور قلبه وشرح صدره للإسلام فاتبع سبيل الرشاد؛ وفريق رانت على قلبه

العناية والضلالة بما اجترح من الآثام ، وأوغل فيه من المعاصي والذنوب ، وذلك كله بتقديره تعالى ومشيتته لا راداً لقضائه ولا دافع لحكمه .

(وهو العزيز الحكيم) أى وهو العزيز فلا يقبل مشيئته غالب ، الحكيم فى صنعه ، فلا يفعل إلا ما تقتضيه السنن العامة فى خلقه ، والنواميس التى وضعها لصلاح حال عباده وصلاحهم : « سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا » .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥)
وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِذْ كُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَدَّبُّونَ آبْنََاءَكُمْ وَيَسْتَحْجُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ لِبَلَاءٍ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧)
وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨)

شرح المفردات

الآيات : هى الآيات التسع التى أجزاها الله على يده عليه السلام ، والظلمات : الكفر والجهالات ، والنور : الإيمان بالله وتوحيده وجميع ما أمروا به ، وذكركم : أى عظيم ، وأيام الله : وقائمه فى الأمم السابقة ويقال فلان عالم بأيام العرب : أى بحروبها وملاحمها كيوم ذى قار ويوم الفجار قال عمرو بن كلثوم :

وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن نديننا
والصبار: كثير الصبر، والشكور: كثير الشكر، يسومونكم: يكلفونكم، بلاء:
أى ابتلاء واختبار، وتأذن: أى آذن وأعلم، وحميد مستوجب للحمد لذاته وإن
لم يحمده أحد.

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أنه أرسل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم إلى الناس ليخرجهم
من الظلمات إلى النور، وأن في هذا الإرسال نعمة له ولقومه - أتبع ذلك بذكر
قصص بعض الأنبياء وتفصيل ما لاقوه من أقوامهم من شديد الأذى والتمرد والعناد،
لما في ذلك من التسلية له وجميل التأسى بهم، وبيان أن المقصود من بعثة الرسل
واحد وهو إخراج الخلق من ظلمات الضلالات إلى أنوار الهدايات.

الإيضاح

(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور) أى كما
أرسلناك أيها الرسول وأنزلنا عليك الكتاب لتخرج الناس من الظلمات إلى النور،
أرسلنا موسى إلى بنى إسرائيل وأيدناه بالآيات التسع التى سلف ذكرها فى سورة
الأعراف وأمرناه بأن يدعوهم إلى الإيمان بالله وتوحيده ليخرجوا من ظلمات الجهل
والضلال إلى نور الهدى والإيمان.

(وذكروهم بأيام الله) أى عظمهم مرغبا لهم بتذكيرهم بنعم الله عليهم وعلى من
قبلهم بمن آمن بالرسول فى الأمم السابقة ليكون فى ذلك حافز لهم على العمل ويكون
لهم بمن سلف أسوة - ونحوها: موعدا بتذكيرهم بأسس الله وعذابه وانتقامه ممن كذب
الرسول من الأمم الغابرة كهعاد وثمود ليكون لهم فى ذلك حردجز وليجذبوا أن يحل
بهم مثل ما حل بغيرهم.

وأيام الله في جانب موسى عليه السلام منها ما كان محنة و بلاء وهي الأيام التي كان فيها بنو إسرائيل تحت قهر فرعون واستعباده ، ومنها ما كانت نعمة كأنجائهم من عدوهم وقلق البحر لهم وإنزاله المن والسلوى عليهم .

(إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور) أى إن في ذلك التنبية والتذكير لدلائل على وحدانية الله وقدرته لكل صبار في المحنة والبلية ، شكور في المنحة والعطية . قال قتادة : نعم العبد عبد إذا ابتلي صبر ، وإذا أعطى شكر ، وفي الحديث إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن أمر المؤمن كله عجب ، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا ، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له » .

وفي هذا إيماء إلى أن الإنسان في هذه الحياة يجب أن يكون بين صبر وشكر أبدا لأنه إما في مكروه يصبر عليه وإما في محبوب يشكر عليه ، والوقت في هذه الحياة ذهب ، فمتى ضاع من حياتنا زمن دون عمل نسدى فيه خدمة لأنفسنا ولديننا ووطننا فقد كفرنا النعمة وأضعنا الفرصة ولم نعتبر بما حل بمن قبلنا من الأمم العابرة ، فليحذر كل امرئ أن يضع حياته بلا عمل وليخف على وقت يضع ثم بعهده عذاب سريع .

ولما سمع موسى أمر ربه امتثله وأخذ يذكر قومه بأيام الله كما حكى الله عنه فقال : (وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) أى إذ ذكر لقومك حين قول موسى لقومه يا قوم تذكروا إنعام الله عليكم إذ أنجاكم من فرعون وآله ، حين كانوا يذيقونكم العذاب ويكلفونكم من الأعمال ما لا يطاق مع القهر والإذلال ، ويذبحون أبناءكم ويبقون نساءكم على قيد الحياة ذليلات مستضعفات ، وهذا رزء من أشد الرزء ، وأعظم ألوان البلاء ، قال شاعرهم :

ومن أعظم الرزء فيما أرى بقاء البنات وموت البنات
وفي ذلك التذكير عبرة لهم لو يعتبرون .

(وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم) أى وفيما ذكر ابتلاء واختبار عظيم من ربكم ، لما فيه من نعمة التعذيب والإذلال وقتل الأولاد واستحياء البنات ، ثم نعمة الإنجاء من كل ذلك العسف والقهر ، فالابتلاء كما يكون بالنعمة يكون بالنعمة كما قال « وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » وقال : « وَتَبَلَّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فَرِنْتَهُ » .

(وإذ تأذن ربكم) أى واذا كروا يابنى إسرائيل حين آذنتكم ربكم وأعلمكم بوعده فقال :

(لئن شكرتم لأزيدنكم) أى لئن شكرتم ما خولتكم من نعمة الإنجاء وغيرها بطاعتي فيما أمركم به وأنهاكم عنه لأزيدنكم من نعمى عليكم ، وقد دلت التجارب أن العضو الذى يناط به عمل كلما من عليه ازداد قوة ، وإذا عطل عن العمل ضمير وضعف ، وهكذا النعم إن استعملت فيما خلقت له بقيت ، وإن أهملت ذهبت . أخرج البخارى فى تاريخه والضياء فى المختارة عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ألهم خمسة لم يحرم خمسة - وفيها - من ألهم الشكر لم يحرم الزيادة » . والخلاصة - إن من شكر الله على ما رزقه وسع عليه فى رزقه ، ومن شكره على ما أقدره عليه من طاعته زاد فى طاعته ، ومن شكره على ما أنعم عليه من صحة زاده الله صحة ، إلى نحو أولئك من النعم .

(ولئن كفرتم) النعم وجحدتموها فلم تقوموا بواجب حقها عليكم من شكر المنعم بها .

(إن عذابي لشديد) بحرمانكم منها وسلبكم ثمراتها فى الدنيا والآخرة ، فتعذبون فى الدنيا بنزوالها ، وفى الآخرة بعذاب لا قبل لكم به ، وفى الحديث : « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه » .

ثم بين سبحانه أن منافع الشكران ومضار الكفران لا تعود إلا إلى الشاكر أو الكافر بتلك النعم ، أما العبود المشكور فيو متعال عن أن ينتفع بالشكر أو يضره الكفر فلا جرم قال :

(وقال موسى إن تكفروا أأنتم في الأرض جميعا فإن الله لعنئ حميد) أى إن تجحدوا نعمة الله التي أنعمها عليكم ويفعل مثل فعلكم من في الأرض جميعا فما أضررتكم بالكفر إلا أنفسكم ، إذ حرمتموها من مزيد الإنعام وعرضتموها للعذاب الشديد ، وإن الله غنى عن شكركم وشكر غيركم وهو الحمدود وإن كفر به من كفر ، وهذا كقولته : « إِنَّ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنَىٰ عَنْكُمْ » الآية وقوله : « فَسَكَنُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَىٰ اللَّهُ ، وَاللَّهُ غَنَىٰ حَمِيدٌ » .

وقد يكون موسى قال هذه المقالة حين عاين منهم دلائل العناد ومخايل الإصرار على الكفر والفساد وتيقن أنه لا ينفعهم الترغيب ولا التعريض بالترهيب .

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا يَا أَيُّهَا الْمَلَائِكَةُ إِنَّا نُسَلِّمُ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ حُرِيْبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِنُقْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُوخِّرُكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ

إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) .

شرح المفردات

الزبية : اضطراب النفس وعدم اطمئنانها بالأمر ، وفاطر السموات والأرض أى موخدهما على نظام بديع ، والسلطان : الحجة والبرهان .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما ذكر به موسى قومه مما أولاهم به ربهم من نعمة ورفع عنهم من نقمة ، ثم ذكر وعده تعالى بالزيادة لمن شكر ووعيده بالعذاب لمن كفر ، ثم حذرهم بأن الكفران لا يضير ربهم وأنه غنى عن حمدهم وحمد من فى الأرض جميعا - أخذ يذكرهم بأيام الله فيمن قبلهم من الأمم السالفة والأجيال البائدة بأسلوب طلي ومقال جلي ، فذكر القول أولا على سبيل الإجمال ، ثم أتبعه بمحاورة بين الرسل وأقوامهم ، أفام فيها الرسل الحجة على أممهم ودحض ما تمسكوا به من الترهات والأباطيل .

الإيضاح

(ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله) أى ألم يأتكم خبر قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل التى غاب عن الناس علمها وعند الله إحصاؤها .

ثم فصل هذا النبا وفسره بقوله :

(جاءتهم رسالهم بالبينات) أى جاءتهم رسالهم بالمعجزات الظاهرة والبيئات

الباهرة ، وبين كل رسول لأمته طريق الحق ودعاهم إليه ليخرجهم من الظلمات إلى النور .

(فردوا أيديهم في أفواههم) أى عضوا بنان الندم غيظا لما جاءهم به الرسل ، وضجرا لنفرتهم من استماع كلامهم إذ سبهوا أحلامهم وشتمو أصدانهم ، وقد فعلت العرب مثل ذلك مع النبي صلى الله عليه وسلم كما قال سبحانه : « عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ » .

وقال أبو عبيدة والأخفش ونعما قالوا هو مثل والمراد أنهم لم يؤمنوا ولم يجيبوا ، والعرب تقول للرجل إذا أمسك عن الجواب وسكت ، قد رد يده في فيه .
(وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به) أى إنا كفرنا بما زعمتم أن الله أرسلكم به من البيئات التى أظهرتموها حجة على صحة رسالتكم ، وإنما يقصدون من الكفر بها الكفر بدلائلها على صدق رسالتهم .

(وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب) أى وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه من الإيمان بالله ووحدهائته ، وجملة ما جئتم به من الشرائع .

وخلاصة مقالهم — إنهم جاحدون نبوتهم قاطعون بعدم صحتها ، لأن ما جاءوا به من التعاليم والشرائع مما يشك في صدقه وأن الله سبحانه يدعو إلى مثله . فرد الرسل عليهم منكرين متعجبين من تلك المقالة الحقاء كما أشار إلى ذلك بقوله :

(قالت رسالهم أفي الله شك ؟) أى أفي وجود الله شك ، وكيف ذلك والقطرة شاهدة بوجوده ، ومجبولة على الإقرار به ، فالاعتراف به ضرورى لدى كل ذى رأى حصيف كما جاء في الحديث : « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » .

ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب فتحتاج إلى النظر فى الأدلة الموصلة ، إلى ذلك ومن ثم وجه الرسل أنظار أممهم إلى هذه الأدلة فقالوا :

(فاطر السموات والأرض) أى هو الذى خلقهما وأبدعهما على غير مثال سابق

ودلائل الحدوث ظاهرة عليهما فلا بد لهما من صانع وهو الله الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء وإلهه ومليكه ، وقد جاء هذا الوصف في محاورات الأنبياء جميعا ، وهو نفس الوصف الذي جاء في أول السورة على لسان نبينا صلى الله عليه وسلم ، ومن هذا يعلم أن كل نبي جعل مطمح نظره توجه النفوس إلى علوم السموات والأرض . ولما أقاموا الدلائل على وجوده وصفوه بكمال الرحمة بقولهم :

(يدعونكم) إلى الإيمان به بوساطة إرساله إيانا لتخرجكم من ظلمات الوثنية إلى نور الوجدانية وإخلاص العبادة للواحد القهار .

(ليغفر لكم من ذنوبكم) أى يدعوكم لمغفرة بعض ذنوبكم وهى الذنوب التى بينكم وبين ربكم لا المظالم وحقوق العباد .

والمتتبع لأسلوب الكتاب الكريم يرى أن كل موضع ذكر فيه مغفرة الذنوب للكافرين جاء بلفظ (من) كقوله : « وَأَتَّقُوا وَأَطِيعُوا . يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ » وقوله : « يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ » لأنه يخاطبهم فى أمر الإيمان وحده .

وفى المواضع التى يذكر فيها مغفرة الذنوب للمؤمنين تجيء بدون ذكر (من) كقوله : « ذَلِكَ كَمَنْ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ » لأن المغفرة منصرفة إلى المعاصى ومتوجهة إليها .

(ويؤخركم إلى أجل مسمى) أى إلى وقت سماه الله وجعله منتهى أعماركم إن أنتم آمنتم به ، وإلا عاجلكم بالهلاك وعذاب الاستئصال جزاء كفرانكم بدعوة الرسل إلى التوحيد وإخلاص العبادة للواحد القهار .

ثم حكى الله تعالى رد الأمم على مقالة الرسل ، وهو يتضمن ثلاثة أشياء :

(١) (قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا) فلا فضل لكم علينا ، فلم خصصتم بالنبوة وأطلعكم الله على الغيب وجعلتكم مخالفين لزمر الملائكة دوننا ، إلى أنه لو كان الأمر

كما تدعون لوجب أن تفارقونا في الحاجة إلى الأكل والشرب وقربان النساء وما شاكل ذلك .

(٢) (تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا) ولا حجة لكم على ما تدعون وليس من حصافة العقل أن نترك أمرا قبيلا أن يقوم الدليل على خطئه .

(٣) (فأتونا بسلطان مبين) أى بحجة ظاهرة تدل على صحة ما تدعون من النبوة ، أما ذكر السموات والأرض وعجائبهما فلسنا نحفل بهما ، والعجائب الأرضية والسمائية لا نعقلها ، والبشر لا يخضعون إلا لمن يأتيهم بما هو خارج عن طور معتادهم وحينئذ يعظمونه ويبيحونه ، وهذه المشاهدات لا ترى فيها شيئا خارقا للعادة ، وإذا فلا إيمان ولا تسليم إلا بما هو فوق طاقتنا كقلب العصاحية ونقل الجبال وما إلى ذلك .

وبعد أن حكى عن الكفار شبهاتهم في الطعن في النبوة حكى عن الأنبياء جوابهم عنها فأجابوا عن الأولى والثانية بالتسليم لكن التماثل لا يمنع من اختصاص بعض البشر بمنصب النبوة لأن هذا منصب يمن الله به على من يشاء من عباده ، كما لا يمنع من أن يخص بعض عباده بالتمييز بين الحق والباطل والصدق والكذب وأن يحرم الجمع العظيم منه ، وهذا ما أشار إليه بقوله :

(قالت لهم رسالهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده) وأجابوا عن الشبهة الثالثة بأن ما جئنا به حجة قاطعة وبينة ظاهرة على صدق رسالتنا وما أقرحتموه من الآيات فأمره إلى الله إن شاء أظهره وهو زائد على قدر الكفاية ، وذلك ما أومئوا إليه بقولهم :

(وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله) أى بمشيئته وإرادته ، وليس ذلك في قدرتنا .

وبعد أن أجابهم الأنبياء عن شبهاتهم أخذ المشركون يخوفونهم ويتوعدونهم بالانتقام منهم وإيذا بهم قدر ما يستطيعون ، فقال لهم الأنبياء إنا لا نخاف تهديدكم

ولا وعيدكم ، بل نتوكل على الله ونعتمد عليه ولا نقيم لما نقولون وزنا ولا نأبه به ، وهذا ما أشار إليه سبحانه بقوله حكاية عنهم :

(وعلى الله فليتوكل المؤمنون) في دفع شرور أعدائهم عنهم وفي الصبر على معاداتهم .

ثم زادوا أمر التوكل توثيقاً وتوكيداً فقالوا :

(وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا) أى وكيف لا نتوكل على الله وقد هدانا إلى سبل المعرفة وأوجب علينا سلوك طريقها وأرشدنا إلى طريق النجاة ، ومن أنعم الله عليه بنعمة فليشكره عليها بالعمل بها .

(ولنصبرنّ على ما آذيتونا) أى ولنصبرنّ على إيذائكم بالعدا والافتراء والآيات ونحو ذلك مما لا خير فيه وتدعركم لعبادة الله وحده ليكون ذلك منا شكراً على نعمة الهداية .

ثم ختموا كلامهم بمدح التوكل وبيان أن إيذاءهم لا يثنيهم عن تبليغ رسالة ربهم فقالوا :

(وعلى الله فليتوكل المتوكلون) أى وعلى الله وحده فليثبت المتوكلون على توكلهم وليحتملوا كل أذى في جهادهم ولا يباليوا بما يصيبهم من أذى ولا بما يلاقون من صعاب وعقبات .

ومن عنده مال أو علم فليمنع به الناس وليكن كالنهر يسقي الزرع والشمس تضيء العباد وليصبر على أذى الناس كما صبر الأنبياء وأوذوا ، فالهداية ما خلقوا إلا ليعملوا فهم هداة بطباعهم ، ولذاتهم في قلوبهم ومنهم تنتقل إلى الناس .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ

الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) وَاسْتَفْتَحُوا
 وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦)
 يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ
 وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧) .

شرح المفردات

لنعودنّ : لتصبرين ، والملة : الدين والشريعة ، وللقام : موقف الحساب ،
 واستفتحوا : أى طلبوا الفتح بالنصرة على الأعداء ، وخاب : هلك ، والجبار :
 العاتى المتكبر على طاعة الله ، والعنيد : المعاند للحق المخالف له ، ومن ورأه : أى من
 بعد ذلك ينتظره ، والصدید : ما يسيل من جلود أهل النار ، يسغّه : أى يستطيعه
 يقال ساغ الشراب : إذا جاز الخلق بسهولة ، يأتيه الموت : أى تأتبه أسبابه وتحيط به
 من كل جهة ، عذاب غليظ : أى شديد غير منقطع .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما دار من الحوار والجدل بين الرسل وأقوامهم وذكر الحجج التي
 أدلى بها الرسل وقد كان فيها المنفع لمن أراد الله له الهداية والتوفيق ، ومن كان له
 قلب يعى به الحكمة وفصل الخطاب - ذكر هنا أنهم بعد أن أحموا لم يجدوا وسيلة
 إلا استعمال القوة مع أنبيائهم كما هو دأب المحجوج المغلوب في الخصومة ، فخيروا
 رسلهم بين أحد أمرين : إما الخروج من الديار ، وإما العودة إلى الملة التي عليها الآباء
 والأجداد ، فأوحى الله إلى أنبيائه أن العاقبة لكم وستدور عليهم الدائرة ، وستحلون
 محلهم في ديارهم وسيعذبون في الآخرة بنار جهنم ويرون ألوانا من العذاب
 لا قبل لهم بها .

الإيضاح

(وقال الذين كفروا لرسالهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا) أى وقال الذين كفروا بالله لرسالهم حين دعوهم إلى توحيدته تعالى وترك عبادة الأصنام والأوثان لنخرجنكم من بلادنا مطرودين منها إلا أن تعودوا في ديننا الذى نحن عليه من عبادة الأصنام كما قال قوم شعيب له ولئن آمن به : « لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا » الآية ، وكما قال قوم لوط : « أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ » الآية ، وقال إخبارا عن مشركى قريش : « وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لَيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلَّا قَلِيلًا » .

وخلاصة هذا— ليكونن أحد الأمرين لا محالة : إما إخراجكم ، وإما صيرورتكم في ملتنا ملة الآباء والأجداد وهى عبادة الآلهة والأوثان ، وقد مكن لهم فى ذلك أنهم كانوا كثرة وكان أهل الحق قلة كما جرت بذلك العادة فى كل زمان ومكان ، فإن الظلمة يكونون متعاونين متعاضدين ، ومن ثم استطاعوا أن يبرموا هذا الحكم بلا هوادة ولا رفق كما هو شأن المعتز بقوته الذى لا يخشى اعتراضا ولا خلافا .

والأنبياء صلوات الله عليهم لم يكونوا فى ملتهم ولم يعبدوا الأصنام طيلة حياتهم لكنهم لما نشئوا بين ظهرانيهم وكانوا من أهل تلك البلاد ولم يظهروا فى أول أمرهم مخالفة لهم — ظنوا أنهم كانوا على دينهم .

ولما تمدت الأمم فى الكفر وتوعدوا الرسل بأخذهم بالشدة والإيقاع بهم— أوحى الله إليهم بإهلاك من كفر بهم ووعدهم بالنصر والغلب على أعدائهم كما أشار إلى ذلك بقوله : (فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولتسكننكم الأرض من بعدهم) أى فأوحى الله إلى رسله قائلًا لهم : لتهلكن من تنهى فى الظلم من المشركين ، ولتسكننكم أرضهم وديارهم بعد إهلاكهم عقوبة لهم على قولهم : (لنخرجنكم من أرضنا) .

وفي ذلك وعيد وتهديد للمشركين من قريش على كفرهم وجراعتهم على نبيه ،
وتثبيت وأمر له بالصبر على مايلقى من المكروه كما صبر من كان قبله من الرسل ،
وبيان لأن عاقبة من كفر به الهلاك وعاقبته النصر عليهم كما قال : « سِنَّةَ اللَّهِ
فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ » وقال : « وَتَقَدَّ سَبَبَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ، إِنَّهُمْ
لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ، وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْعَالَمُونَ » وقال : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ
أَنَا وَرُسُلِي » .

ثم ذكر السبب في نصرهم عليهم فقال :

(ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد) أى هكذا أفعال بمن خاف مقامه بين
يدى يوم القيامة ، وخاف وعيدى فاتقانى بطاعتى وتجنب سخطى - أنصره على من
أراد به سوءا وبنى به مكروها من أعدائى ، وأورثه أرضه ودياره .

ثم بين أن كلا من الفريقين الأمم والرسل طلبوا المعونة والتأييد من ربهم وإلى
ذلك أشار بقوله :

(واستفتحوا) أى واستفتحت الرسل على أممها أى استنصرت الله عليها ،
واستفتحت الأمم على أنفسها كما قالوا : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ
فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

ثم ذكر مال المشركين وبيّن أن النصر للمتقين فقال :

(وخاب كل جبار عنيد) أى وهلك كل متكبر مجانب للحق منحرف عنه .
(من وراءه جهنم) أى ومن وراء الجبار العنيد جهنم أى هى له بالمراضا تنتظره
ليسكنها مخلدا فيها أبدا ويعرض عليها فى الدنيا غدوا وعشيا إلى يوم التناد .
ثم بين شرابه فيها فقال :

(ويسقى من ماء صديد) أى ليس له فى النار شراب إلا ما يخرج من جوفه
وقد خالطه القيح والدم ، وخص بالذكر لأنه ألم أنواع العذاب .

ثم ذكر ألمه من ذلك الشراب فقال :

(يتجرعه ولا يكاد يسيغه) أى يتحساه جرعة بعد جرعة ولا يكاد يزدرده

من شدة كراهته ورداءة طعمه ولونه وريحه وحرارته كما قال : « وَسَقُوا مَاءً حَمِيمًا
فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ » وقال : « وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ » .

ثم ذكر ما يحيط به من الأهوال فقال :

(ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت) أى وتحيط به أسبابه من الشدائد

وأنواع العذاب من كل جهة من الجهات من قدامه ومن خلفه ومن فوقه ومن تحته وعن يمينه وعن شماله فى نار جهنم ، ليس منها نوع إلا يأتيه الموت منه لو كان يموت ، لكنه لا يموت كما قال تعالى : « لَا يَقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا » .

ثم أكد شدائدھا وعظيم أهوالھا فقال :

(ومن ورائه عذاب غليظ) أى وله من بعد هذه الحال عذاب آخر غليظ أى

مؤلم أغلظ من الذى قبله وأمر كما قال تعالى : « وَأَصْحَابُ الشَّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشَّمَالِ .
فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ . وَظِلٍّ مِنْ يَحْمُومٍ . لَا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ » وقال : « وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ
لَشَرًّا مَّابٍ . جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمِهَادُ . هَذَا فَلْيَذوقوه حَمِيمٌ وَعَسَاقٌ . وَآخِرُ
مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ » .

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ

عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨) أَلَمْ

تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ

بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما سيلاقيه الكافرون في هذا اليوم العصيب من سائر أنواع العذاب التي سلف وصفها - بين هنا أن ما عملوه في الدنيا من صالح الأعمال لا يجديهم فتيلا ولا قطميرا ، فما أشبهه إذ ذاك برماد أطارته الريح في يوم عاصف فذهبت به في كل ناحية ، فهم لا يجدون من أعمالهم فيه شيئا ، ثم بين أن ذلك اليوم آت لا ريب فيه ، فإن من أنشأ السموات والأرض بلا معين ولا ظهير قادر على أن يفنيهم ويأتى بخلق سواهم ، وليس ذلك بعزيز ولا بممتنع عليه .

الإيضاح

(مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف) أى ما مثل أعمال الكافرين التي كانوا يعملونها في الدنيا ويزعمون أنها تنفعهم يوم الجزاء - إلا كمثل رماد حملته الريح وأسرعت الذهاب به في يوم عاصف فنسفته ولم تبق له أثر ، فهم يوم القيامة لا يجدون منها شيئا ينفعهم عند الله فينجبهم من عذابه ، إذ لم يكونوا يعملونها لله خالصة ، بل كانوا يشركون فيها الأصنام والأوثان .

والمراد من تلك الأعمال أعمال البر كالصدقة ، وصلة الرحم ، وبر الوالدين ، وإطعام الجائع ، وإغاثة الملهوف ، ونحو ذلك .

ثم أكد نفي فائدتها لهم إذ ذاك فقال :

(لا يقدرון مما كسبوا على شيء) أى لا يقدرون يوم القيامة على شيء من أعمالهم في الدنيا ، فلا يرون لها أثرا من ثواب أو تخفيف عذاب ، كما لا ينتفع بالرماد إذا أرسل عليه الريح في يوم عاصف .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَقَدِّمْنَا إِلَىٰ مَّا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ جَعَلْنَا هَبَاءً مَّنشُورًا »

وقال: «مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَاهَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكْتَهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ ، وَلا كُنْ أَنفُسَهُمْ يَظَاهِمُونَ »
 وورد في الصحيح عن أم المؤمنين عائشة أنها قالت «يارسول الله إن ابن جدعان كان في الجاهلية يوصل الرحم ويطعم المسكين ، هل ذلك نافعه ؟ قال لا ينفعه لأنه لم يقل : رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين » .

(ذلك هو الضلال البعيد) أى ذلك السعى والعمل على غير أساس ولا استقامة حتى فقدوا ثوابهم منه أحوج ما كانوا إليه ، هو الضلال البعيد عن طريق الحق والصواب .

ثم ذكر دليل وحدانيته فقال :

(ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد . وما ذلك على الله بعزيز) أى ألم تعلم أيها الرسول أن الله أنشأ السموات والأرض بالحكمة وعلى الوجه الصحيح الذى يحق أن يخلقا عليه ، ومن قدر على خلقهما على أتم نظام وأحكم وضع بلا معين ولا ظهير ، فهو قادر على أن يفتيكم ويأتى بخلق جديد سواكم ، وما ذلك بمتنع ولا متعذر عليه .

ومثل الآية قوله : « أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُنَّ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ عَلَى سَبِيلِ الْإِسْرَافِ » .

وخلاصة ذلك — إنهم بعدوا في الضلال وأمعنوا في الكفر بالله مع وضوح الآيات الدالة على قدرته الباهرة وحكمته البالغة ، وأنه هو الحقيق بأن يرجى ثوابه ويخشى عقابه .

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَدُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ؟ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءَ عَلَيْنَا أَجَزْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١) وَقَالَ الشَّيْطَانُ

لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ
 وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا
 تَلُومُونَ وَلَوْمُوا أَنفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي
 كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ، إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)
 وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣) .

شرح المفردات

وبرزوا : أى صاروا بالبراز وهى الأرض المتسعة ، ويراد بها مجتمع الناس فى ذلك
 اليوم ، والضعفاء : واحدهم ضعيف ، ويراد به ضعيف الرأى والفكر ، والذين
 استكبروا: هم رؤسائهم الذين استنغروهم، والتبع : واحدهم تابع كخادم وخدم ، مغنون:
 أى دافعون ، ومحبيص : أى منجى ومهرب ، والسلطان : التسلط ، بمصرخكم : أى
 بمغيشكم ، يقال استصرخنى فأصرخته : أى استغاثنى فأغثنى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ما يلقاه الأشقياء فى ذلك اليوم من العذاب ، وذكّر أن
 أعمالهم الطيبة التى كانت فى الدنيا أحببت فلم تغن عنهم شيئاً - ذكر هنا محاوره بين
 الأتباع المستضعفين والرؤساء المتبوعين وما يحدث فى ذلك الوقت من الخجل لهم ،
 ثم أرفدها بمناظرة وقعت بين الشيطان وأتباعه من الإنس ، وبعد أن ذكر أحوال
 الأشقياء وبالغ فى بيانها وتفصيلها شرح أحوال السعداء وما أعد لهم من الثواب
 العظيم والأجر الجزيل .

الإيضاح

(وبرزوا لله جميعا) أى برزت الخلائق كلها برّها وفاجرها لله الواحد القهار:
أى اجتمعت فى براز من الأرض ، وهو المكان الذى ليس فيه شىء يستتر أحدا .

(فقال الضعفاء الذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا) أى فقال الأتباع لقادتهم
وسادتهم الذين استكبروا عن عبادة الله وحده وعن اتباع قول الرسل : إنا كنا تابعين
لكم تأمرونا فنأتمر وتمهوننا فننتهى .

(فهل أتمم مغنون عنا من عذاب الله من شىء) أى فهل تدفعون عنا اليوم
شيئا من ذلك العذاب كما كنتم تعدوننا وتمنوننا فى الدنيا .
وقد حكى الله رد أولئك السادة عليهم .

(قالوا لو هدانا الله لهديناكم) أى لو أرشدنا الله تعالى وأضاء أنوار بصائرنا
وأفاض علينا من توفيقه ومعونته لأرشدناكم ودعوناكم إلى سبيل الهدى ووجهنا أنظاركم
إلى طرق الخير والفلاح ، ولكنه لم يهدنا فضلنا السبيل فأضلناكم .

ولما كان هذا القول منهم أمانة الجزع قالوا :

(سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محييص) أى ليس لنا مهرب ولا خلاص
مما نحن فيه إن صبرنا أو جزعنا .

وخلاصة ذلك — سيات الجزع والصبر فلا نجاة من عذاب الله .

وفى مثل الآية قوله : « وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضَّعْفَاءُ لِلَّذِينَ
اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُعْتَنُونَ عَلَيْنَا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ . قَالَ الَّذِينَ
اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ » وقوله : « رَبَّنَا إِنَّا أَعْطَيْنَا
سَادَتَنَا وَكِبْرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا . رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَتُهُمْ
لَعْنًا كَبِيرًا » .

ولما ذكر سبحانه المناظرة التي ستكون بين الأتباع والرؤساء أوردتها بالمناظرة التي ستكون بين الشيطان وأتباعه حيث قال :
 (وقال الشيطان لما قضي الأمر) أى وقال إبليس مخاطبا أتباعه من الإنس ، بعد أن حكم الله بين عباده فأدخل المؤمنين فراديس الجنات ، وأسكن الكافرين سحيق الدركات .

(إن الله وعدكم وعد الحق) أى إن الله وعدكم على السنة رسله بالبعث وجزاء كل عامل على عمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، ووعدوه حق وخبره صدق .
 (ووعدتكم فأخلفتم) أى ووعدتكم أن لاجنة ولا نار ولا حشر ولا حساب ، وإن كانا فنعيم الشفيع لكم الأصنام والأوثان ، فأخلفتم موعدي إذ لم أقل إلا بهزجا من القول وباطلا منه فاتبعتموني وتركتم وعد ربكم وهو وليكم ومالك أمركم .
 ونحو الآية قوله : « يَٰعِدُهُمْ وَيَمَنِّئُهُمْ ، وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا » .
 (وما كان لى عليكم من سلطان) أى وما كان لى قوة وتسلط تجعلنى أجتكم إلى متابعتى على الكفر والمعاصى .

(إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى) أى ولكن بمجرد أن دعوتكم إلى الضلال بوسوستى وتزيينى ، أسرعتم إلى إجابتى واتبعتم شهوات النفوس وأطعتم الهوى وخضتم فى مسالك الردى .
 (فلا تلومونى ولوموا أنفسكم) لأنه ما كان منى إلا الدعاء . وإلقاء الوسوسة ، ولوموا أنفسكم إذ استجبتم لى باختياركم الذى نشأ عن سوء استعدادكم بلا حجة منى ولا برهان بل بتزيينى وتسويلى ، ولم تستجيبوا لربكم وقد دعاكم دعوة الحق المقرونة بالحجج والبينات .

ثم حكى سبحانه قول الشيطان حين ذاك لأتباعه فقال :
 (ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى) أى ما أنا بمتبعكم مما أنتم فيه من العذاب فأزيل ضراخكم ، وما أنتم بمتبعى مما أنا فيه من العذاب والنكال .

(إني كفرت بما أشركتمون من قبل) أي إني جحدت اليوم أن أكون شريكا لله فيما أشركتموني فيه من قبل هذا اليوم أي في الدنيا ، وهذا كقوله : « وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْ كِكُمْ » .

ومعنى كفره بإشراكهم تبرؤه منه واستنكاره له ، وهذا كقوله تعالى : « إِنَّا بَرَأْنَا مِنْكُمْ وَبِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ » .

(إن الظالمين لهم عذاب أليم) أي قال إبليس قطعاً لأطاع الكفار من الإغاثة والنجاة من العذاب ، وإنما حكي الله ذلك عنه ليكون تنبيهاً للسامعين وحضاً لهم على النظر في عاقبة أمرهم والاستعداد لذلك اليوم الذي يقول فيه الشيطان ما يقول ، فيثوبوا إلى رشدهم ويرجعوا عن غيهم ويشدكروا هول ذلك الموقف ورهيبته .

ولما جمع سبحانه فريق السعداء والأشقياء في قوله : « وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا » وبالغ في وصف حال الأشقياء من وجوه كثيرة - ذكر حال السعداء وما أعد لهم من نعم مقيم في ذلك اليوم فقال :

(وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها) أي وأدخل الذين صدقوا الله ورسوله فأقروا بوحدانيته تعالى ورسالة رسوله ، وعملوا بطاعته فاتتهوا إلى أمره ونهيه ، بساتين تجري من تحتها الأنهار ما كثرن فيها أبدا لا يتحولون عنها ولا يزولون منها .

(ياذن ربهم) أي بتوقيقه تعالى ، إذ وجه نفوسهم في الدنيا لنكسب الخيرات وللليل إلى العمل بما يرضيه ويرضى رسوله ، وأثار بصائرهم للاعتقاد بأن يوم الجزاء آت لا ريب فيه ، فأعدوا له العدة ، فكان على الله بمقتضى وعده أن يدخلهم جناته كفاء ما جدوا في رضاه ونصبوا في طاعته خوفاً من هول ذلك اليوم العصيب .

(تحييتهم فيها سلام) أي يحييهم الملائكة بالسلام ياذن ربهم تعظيماً لشأنهم وعناية بأمرهم ، وجاء في هذا المعنى قوله تعالى في وصف دخولهم الجنة « لَحْتَى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » وقوله : « وَالْمَلَائِكَةُ

يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » وقوله : « وَيَأْتُونَ فِيهَا حَمِيمًا وَسَلَامًا » كما يحميمهم ربهم جلت قدرته إظهارا لرضاه عنهم وإجلالا وإكبارا لهم كما قال : « سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ » .

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦) يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ، وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧) .

شرح المفردات

المثل : قول في شيء يشبه بقول في شيء آخر لما بينهما من المشابهة ويوضح الأول بالثاني لئيم انكشاف حاله به ، ثابت : أى ضارب بعروقه فى الأرض ، فى السماء : أى جهة العلو ، تؤتى أكلها : أى تعطى ثمرها ، بإذن ربها : أى بإزادة خالقها ، اجثتت : أى استوصلت وأخذت جنتها ، والقرار : الاستقرار ، القول الثابت : أى الذى ثبت عندهم وتمكن فى قلوبهم .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه حال الأشقياء ومآل أمرهم وما يلاقونه من الشدائد والأهوال فى نار جهنم التى لا يجدون عنها محيصا وذكر أحوال السعداء وما ينالون من فوز عند ربهم - ضرب لذلك مثلا بين حال الفريقين ويوضح الفرق بين الفئتين ، وبه ألبس

المعنويات لباس الحسيات ليكون أوقع في النفس وأتم لدى العقل ، والأمثال لدى العرب هي المهيّج السلوك والطريق المتبع لإيضاح المعاني إذا أريد تشيبتها لدى السامعين والقرآن الكريم مليٌّ بها والسنة النبوية جرت على منهاجه ، فكثيراً ما تتّبع المسائل الهامة بضرب الأمثال لها لتستقر في النفوس وتنقش في الصدور .

الإيضاح

(ألم تر كيف ضرب الله مثلاً) أى ألم تعلم أيها الإنسان علم اليقين ، كيف ضرب الله مثلاً ووضع الموضع اللائق به .

(كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء . تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها) أى إن الله جات قدرته شبه الحكمة الطيبة وهي الإيمان الثابت في قلب المؤمن الذي يُرفع به عمله إلى السماء كما قال : « **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** » وتُنال بركته وثوابه في كل وقت ، فالمؤمن كلما قال لا إله إلا الله صعدت إلى السماء وجاءت بركتها وخيرها - بالشجرة الطيبة المثمرة الجميلة المنظر الشذية الرائحة التي لها أصل راسخ في الأرض به يؤمن قلعها وزوالها ، وفروعها متصاعدة في الهواء (فيكون ذلك دليلاً على ثبات الأصل ورسوخ العروق ، وعلى بعدها عن عفونات الأرض وقاذورات الأبنية) فتأتي الثمرة نقيّة خالية من جميع الشوائب وتثمر في كل حين بأمر ربها وإذنه ، وإذا اجتمع لهذه الشجرة كل هذه المميزات أكثر رغبة الناس فيها .

وخلاصة ذلك - إنه تعالى شبه كلمة الحكمة والإيمان بشجرة ثبتت عروقهها في الأرض وعلت أغصانها إلى السماء وهي ذات ثمر في كل حين ، ذلك أن الهداية إذا حلت قلباً فاظت منه على غيره وملأت قلوباً كثيرة ، فكأنها شجرة أثمرت كل حين ، لأن ثمراتها دائماً لا مقطوعة ولا ممنوعة ، وكل قلب يتلقى عما يشا كله ويأخذ منه بسرعة أشد من سرعة إيقاد النار في الهشيم أو سريان الكهرباء في المعادن أو الضوء في الأثير .

وقد زوى عن ابن عباس أن الكلمة الطيبة هي قول « لا إله إلا الله » وأن الشجرة الطيبة : هي النخلة ، وعن ابن عمر قال : « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أخبروني عن شجرة تشبه الرجل المسلم لا يتحات ورقها لاصيفا ولا شتاء وتوثى أكلها كل حين بإذن ربها ، قال ابن عمر فوقع في نفسى أنها النخلة ، ورأيت أبا بكر وعمر لا يتكلمان ، فكرهت أن أتكلم ، فلما لم يقولوا شيئا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : النخلة . فلما قنا قلت لعمر : يا أبتاه والله لقد كان وقع في نفسى أنها النخلة ، قال ما متعك أن تتكلم ؟ قلت لم أركم تتكلمون ، فكرهت أن أتكلم أو أقول شيئا ، قال عمر : لأن تكون قلتها أحب إلى من كذا وكذا » رواه البخارى .

ثم نبه سبحانه إلى عظم هذا المثل ليكون ذلك داعية تدبره ومعرفة المراد منه فقال : (ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون) أى إن فى ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكيرا للناس ، لأن أنس النفوس بها أكثر ، فهى تخرج المعنى من حفى إلى جلى ، ومما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع ، وبها يطبق المعقول على الحسوس فيحصل العلم التام بالشيء الممثل له .

(ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار) أى ومثل كلمة الكفر وما شاكلها مثل شجرة خبيثة كالخنظل ونحوه مما ليس له أصل ثابت فى الأرض ، بل عروقه لاتتجاوز سطحها ، وقد اقتنعت من فوق الأرض ، لأن عروقتها قريبة منه ، أو لاعروق لها فى الأرض ، فكأن هذه لاثبات لها ولادوام ، فكذلك الباطل لا يدوم ولا يثبت بل هو زائل ذاهب ، وثمره مرّ كرهه كالخنظل .

وما أقوى الحق وأثبتته وأكثر نفعه للناس ، فهو ثابت الدائم متين الأركان مشر كل حين كالنخل .

والخلاصة — إن أرباب النفوس العالية وكبار المفكرين هم أصحاب الكلمة الطيبة ، وعلومهم تعطى أممهم نعا ورزقا فى الدنيا ، وهى مستقرة فى نفوسهم ،

وفروعها، ممتدة إلى العوالم العلوية والسفلية، وتثمر كل حين لأبناء أمتهم ولغيرهم فيهندي بها المؤمنون، وما أشبههم بالبخلة التي لها أصل مستقر وفروع عالية وعمر دائم ويأكل الناس منها صيفا وشتاء :

وأرياب الشبهوات والنفوس الضعيفة والمقلدون في العلم هم أصحاب الكلمة الخبيثة التي لا تثبات لها كالخنظل .

وبعد أن وصف الكلمة الطيبة بما سلف أخير بفوز أصحابها ببغيتهم في الدنيا والآخرة فقال :

(يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة) أى يثبتهم بالكلمة الطيبة التي ذكرت صفاتها العجيبة فيما سلف مدة حياتهم ، إذا وجد من يفهمهم عن دينهم ويحاول زلهم كما جرى لبلال وغيره من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد الموت في القبر الذي هو أول منزل من منازل الآخرة ، وفي مواقف القيامة فلا يتلعثمون ولا يضطربون إذا سئلوا عن معتقدهم ولا تدهشهم الأهوال .

أخرج ابن أبي شيبة عن البراء بن عازب أنه قال في الآية : التثبيت في الحياة الدنيا إذا جاء الملائكة إلى الرجل في القبر فقال له من ربك ؟ قال ربى الله ، وقالوا وما دينك ؟ قال دينى الإسلام ، وقالوا وما نبيك ؟ قال نبي محمد صلى الله عليه وسلم ، وعن عثمان بن عفان قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال : استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت ، فإنه الآن يسأل » أخرجه أبو داود .

وقد وردت أحاديث كثيرة في سؤال الملائكة للميت في قبره وفي جوابه عليهم وفي عذاب القبر وفتنته وليس هذا موضعها . نسأل الله التثبيت في القبر وحسن الجواب بتمه وكرمه إنه على ما يشاء قدير .

وعلى هذا فالمراد بالحياة الدنيا مدة الحياة ، والآخرة يوم القيامة والعرض للحساب . وبعد أن وصف الكلمة الخبيثة في الآية المتقدمة بين حال أصحابها بقوله :

(ويضل الله الظالمين) أى ويخلق فيهم الضلال عن الحق الذى ثبت للمؤمنين عليه على حسب إرادتهم واختيارهم لسوء استعدادهم وميلهم مع شهوات النفوس وتدسيتها بصنوف الشرور والمعاصي ، سنة الله فى عباده وإن تجد لسنة الله تبديلا . والمراد بالظالمين هنا الكفار لأنهم ظلموا أنفسهم بتبديلهم فطرة الله التى فطر الناس عليها وعدم اهتدائهم إلى القول الثابت .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي عن ابن عباس رضى الله عنهما « أن الكافر إذا حضره الموت تنزل عليه الملائكة عليهم السلام يضربون وجهه ودبره ، فإذا دخل قبره أقعد قبيل له من ربك ؟ لم يرجع إليهم شيئا وأنساه الله تعالى ذكر ذلك ، وإذا قيل له من الرسول الذى بعث إليك ؟ لم يهتد له ولم يرجع إليه شيئا ، فذلك قوله تعالى : (ويضل الله الظالمين) » .

(ويفعل الله ما يشاء) أى وييده تعالى الهداية والإضلال على حسب ما تقتضيه سننه العامة التى سننها فى عباده ، وعلى حسب استعداد النفوس وقبولها لكل منهما ، فلا تنكروا قدرته على اهتداء من كان ضالا ولا ضلال من كان منكم مهتديا ، فإن بيده تصريف خلقه وتقليب قلوبهم يفعل فيهم ما يشاء .

تَرَى إِلَى الدِّينِ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ البُورِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١) .

شرح المفردات

البور : الهلاك يقال رجل بائر وقوم بُور كما قال : « وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا » ويصلونها : يقاسون حرها ، والأنداد : واحدهم نداء وهو المثل والشبيه ، والمصير : المرجع ، والبيع : الفدية ، والخلال : الحائلة والصدقة .

المعنى الجملى

بعد أن ضرب عز اسمه الأمثال بيانا لحالى الفريقين ، وذكر ما يلهيه من التوفيق فى الدارين للسعداء ، وما يتال الأشقياء من الخذلان والإضلال ، جزاء ما كتبت أيديهم من تدسيثهم لأنفسهم باجتراحهم للشروز والآثام ، وبين أن كل ذلك يفعله على حسب ما يرى من الحكمة والمصلحة .

ذكر هنا الأسباب التى أوصلتهم إلى سوء العاقبة معجبا رسوله بما صنعوا من الأباطيل التى لا تكاد تصدر من له حظ من الفكر والنظر ، ولم تكن هذه الطامة خصيصي بهم ، بل كانت فتنة شعواء عنهم جميعا : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » .

ذاك أنهم بدلوا النعمة كفرا والشكر جحدا وإنكارا ، ولبت البلية كانت واحدة بل أضافوا إليها أخرى فالتخذوا لله الأنداد والشركاء ، ثم تلتوا بإضلال غيرهم فكانوا دعاة الكفر وأعوان الفتنة :

فلو كان هم واحدا لاحتملته ولكنه هم وثنان وثالث

ومن ثم كانت عاقبتهم التى لا مرد لها العذاب الأليم فى جهنم وبئس المصير؛ ثم بين رسوله أن مثل هؤلاء لا تجدى فيهم العظة ، فذرهم يتمتعوا فى هذه الحياة حتى حين ، ثم لا بد لهم من النصيب المحتوم .

وبعد أن أمر الكافرين على سبيل الوعيد والتهديد بالتمتع بنعيم الدنيا أمر عبادة المؤمنين بعدم المغالاة فى التمتع بها والجد فى مجاهدة النفس والهوى ببدل النفس والمال فى كل ما يرفع شأنهم ويقربهم من ربهم وينيلهم الفوز لديه فى يوم لا تنفع فيه فدية ولا صداقة ولا خلة : « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَتُونَ . إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » .

أخرج عطاء عن ابن عباس أن هؤلاء هم كفار مكة ، وأخرج الحاكم وابن جرير والطبرانى وغيرهم عن على كرم الله وجهه أنه قال فى هؤلاء المبدلين : هم الأجران من قريش بنو أمية وبنو المعيرة ، فأما بنو المعيرة فقطع الله تعالى دابرهم يوم بدر ، وأما بنو أمية فتمتعوا إلى حين .

الإيضاح

عدد سبحانه الأسباب التي أوقعت هؤلاء الأشقياء ومن شايعهم في سوء المنقلب

وحصرها في ثلاثة :

(١) (ألم ترى إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً) أي ألم تعلم وتعجب من قوم بدلوا شكر النعمة غمطاً لها وججوداً بها كأهل مكة الذين أسكنهم الله حرماً آمناً يجي إليه ثمرات كل شيء وجمالهم قوام بيته ، وشرفهم بإرسال رسوله محمد صلى الله عليه وسلم فكفروا بتلك النعمة ، فأصابهم الجذب والقحط سبع سنين دأباً وأسروا يوم بدر وصدفوا في السلاسل والأغلال وقتل منهم العدد العديد من صناديدهم ورجالاتهم ممن كانوا يضمنون بهم ويحفظون بمواضعهم : * ليوم كريمة وسداد ثغر *
(وأحلوا قومهم دار البوار) أي وأحلوا من شايعهم على الكفر دار الهلاك الذي لاهلاك بعده .

ثم بين هذه الدار فقال :

(جهنم يصلونها وبئس القرار) أي هذه الدار هي جهنم دار العذاب التي يقاسون حر نارها ، وبئس المستقر هي لمن أراد الله به النكال والوبال .

(٢) (وجعلوا لله أندادا) أي واتخذوا لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي ليس كمثل شيء ، أندادا وشركاء من الأصنام والأوثان ، أشركوهم به في العبادة كما قالوا في الحجج : لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك .

(٣) (ليضلوا عن سبيله) أي لتكون عاقبة أمر الذين شايعوهم على ضلالهم ، الصد والإعراض عن سبيله القويم ودينه الحنيف ، والوقوع في حمأة الكفر والضلال . ولما حكى الله عنهم هذه الهنات الثلاث ، تبديل النعمة ، واتخاذ الأنداد والأمثال ، وإضلال قومهم ، أمر نبيه أن يقول لهم على سبيل التهديد والوعيد : سيروا على ما أتم عليه فإنه لا فائدة في نصحكم وإرشادكم والعاقبة النار .

(قل تمتعوا) أى تمتعوا بما أتم فيه سادرون مما سيؤدى بكم إلى مهاوى الهلاك من الكفران وعبادة الأوثان والأضنام والسعى فى إضلال الناس والصد عن سبيله . ثم بين جزاءهم المحتوم فقال :

(فإن مصيركم إلى النار) أى إن مرجعكم وموتلكم إليها كما قال : « تمتعهم قليلاً ثم نضطرهم إلى عذابٍ غليظٍ » وسمى الله تعالى ذلك تمتعا ، لأنهم تلدذوا به وأحسوا بقبضة وسرور كما يتلدذون بالمشتريات من النعم ، وهذا الأسلوب التهكمى يستعمل فى التخاطب كثيرا فترى الطبيب يأمر مريضه بالاحتماء من بعض ما يضره ويؤذيه ، ثم لا يرى منه إلا تماديا فى الإعراض عن أوامره واتباعا لشهواته ، فيقول له : كل ما تريد فإن مصيرك إلى الموت ، وما مراده من ذلك إلا التهديد ليرتدع ويقبل ما يقول . وكما يقال لمن سعى فى مخالفة السلطان : اصنع ما شئت فإن مصيرك إلى السيف .

وبعد أن هدد الكفار على انغاسهم فى اللذات ، أمر نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر خلص عباده بإقامة العبادات البدنية وأداء الفرائض المالية فقال :

(قل لعبادى الذين آمنوا يقيموا الصلاة وينفقوا مما رزقناهم) أى قل لهم : أقيموا الصلاة على وجهها وأدوها كما طلب ربكم فهى عماد الدين وهى التى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وهى المصباح المؤمن يستضيء به للقرب من ربه ، وأدوا الزكاة بشكركم له على نعمه الجزيلة ، رأفة بعباده الفقراء سدا لخلتهم وإيجادا للتضامن والتعاون بين الإخوة فى الدين : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » .

(سرا وعلانية) أى أنفقوا ذلك فى السر والعلن ، ولكل منهما حال تستحب فيها وقد تقدم القول فى تفصيل ذلك .

(من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال) أى من قبل أن يأتى اليوم الذى لا تنفع فيه فدية ولا تجدى فيه صداقة ، فلا يشفع خليل لخليل ولا يصفح عن عقابه لخالته لصديقه ، بل هناك العدل والقيسط كما قال : « فَأَلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ

وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا» وقال : « أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ » .

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ (٣٢) وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَآسَأٍ لُتْمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) .

شرح المفردات

السماء : السحاب وكل ما علا الإنسان فأظله فهو سماء ، والرزق : كل ما ينتفع به ، والتسخير : التيسير والإعداد ، والفلك : السفن ، دائبين : أى دائمين فى الحركة لا يفتقران ، يقال دأب فى العمل إذا سار فيه على عادة مطردة كما قال : « تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا » آتاكم : أى أعطاكم ، لا تحصوها : لا تطيقوا حصرها ، والإحصاء العد بالخصى وكان العرب يعتمدونه فى العد كاعتمادنا فيه على الأصابع ، ظلوم : أى لنفسه بإغفال شكر النعمة ، كفار : شديد الكفران والجهود لها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أحوال الكافرين لنعمة حين بدلوا الشكر بالكفر واتخذوا لله أندادا فكان جزاؤهم جهنم وبئس المهاد ، ثم أمر المؤمنين بإقامة شعائر الدين من صلاة وزكاة وشكر الربهم على ما أوتوا من النعم وحثهم على الجهاد فى سبيل كلهم ورفيقهم ببدل النفس والنفيس وهو المال لتكتمل لهم السعادة فى الدارين - شرع يذكر

الأدلة المنصوبة في الآفاق والأنفس التي توجب على عباده المثابرة على شكره ودوام الطاعة له ، ويذكر النعم الجسام التي يتقبلون في أعطافها أثناء الليل وأطراف النهار ، ليكون في ذلك حث لهم على التدبر فيما يأتون وفيما يذرون ، وفيه عظيم الدلالة على وجوب شكر الصانع لها ، كما فيه أشد التقريع للكافرين الذين أعرضوا عن النظر والتفكير في تلك النعم فكان هذا ذاعية كفرها وجحودها ، وعظما وكنودها .

الإيضاح

(الله الذي خلق السموات والأرض) أى الله الذى خلق لكم السموات والأرض وهما أكبر خلقا منكم وفيهما من المنافع لكم ما تعلمون وما لاتعلمون ، وتقدم تفصيل هذا في مواضع متعددة من كتابه الكريم .

(وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم) أى وأنزل من السماء غيثا أحيا به الشجر والزرع فأثمرت لكم رزقا تأكلون منه وتعيشون به .

والآية كقوله : « وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّىٰ »

أى من ثمار وزروع مختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح والمنافع .

(وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره) أى وذلل لكم السفن بأن أقدركم على صنعها وجعلها طافية على وجه الماء تجرى عليه بأمره تعالى وسخر البحر لخدمتها ، ليقطع المسافرون بها المسافات الشاسعة من إقليم إلى إقليم جلب ما هناك إلى هنا ونقل ما هنا إلى هناك .

(وسخر لكم الأنهار) تشق الأرض شقا من قطر إلى قطر لانتفاعكم بها حيث

تسربون منها وتتخذون جداول تسقون بها زروعكم وجناتكم ، وما أشبه ذلك .

(وسخر لكم الشمس والقمر دائبين) أى دائمين في الحركة لا يفتران إلى انقضاء

عمر الدنيا كما قال : « لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ،

وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ » . وقال : « يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

وَالنَّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ .
 (وسخر لكم الليل والنهار) يتعاقبان ، فالنهار لسعيكم في أمور معاشكم وما
 تحتاجون إليه في أمور دنياكم ، والليل لتسكنوا فيه كما جاء في الآية الأخرى (وَمِنْ رَحْمَتِهِ
 جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ) فالشمس والقمر يتعاقبان ،
 والليل والنهار يتعارضان ، فتارة يأخذ هذا من ذلك فيطول ثم يأخذ الآخر من هذا
 فيقصر كما قال تعالى : « يُورِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُورِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ، وَسَخَّرَ
 الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ » .

(وآتاكم من كل ما سألتموه) أى هيا لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع
 أحوالكم من كل الذى هو حقيق أن تسألوه سواء أسألتموه أم لم تسألوه ، لأن هذه
 الدنيا قد وضع الله فيها منافع يجهلها الناس وهى معدة لهم ، فلم يسأل الله أحدًا
 فى الأمم الماضية أن يعطيهم الطائرات والمغناطيس والكهرباء ، بل خلقها وأعطائها
 للناس بالتدريج ، ولم يزل هناك عجائب ستظهر لمن بعدنا .

(وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) أى لاتطبقوا عدد أنواعها فضلا عن
 القيام بشكرها .

وفى صحيح البخارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم
 لك الحمد غير مكفى ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا » وأثر عن الشافعى أنه قال :
 الحمد لله الذى لا يؤدى شكر نعمة من نعمه إلا بنعمة حادثة توجب على مؤديها شكره
 بها ، وقال شاعرهم :

لو كل جارحة منى لها نعمة ثنى عليك بما أوليت من حسن
 لكان ما زاد شكرى إذ شكرت به إليك أبلغ فى الإحسان والتمن

(إن الإنسان لظلوم كفار) أى إن الإنسان الذى بدل نعمة الله كفرا لشاكر
 غير من أنعم عليه ، فهو بذلك واضع للشكر فى غير موضعه - ذلك أن الله هو الذى
 أنعم عليه بما أنعم واستحق إخلاص العبادة له ، فعبد هو غيره وجعل له أندادا ليضاه

عن سبيله ، وذلك هو ظلمه ، وهو جحد لنعمه التي أنعم بها عليه لصفه العبادة إلى غير من أنعم بها عليه وتركه طاعة من أنعم عليه .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥) رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦) رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي ، وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨) الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩) رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ، رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءَ (٤٠) رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١) .

شرح المفردات

واجنبني : أي أبعدني ، وأصل التجنب أن يكون الرجل في جانب غيره ما عليه غيره ثم استعمل في البعد مطلقا ، وتهوى إليهم : أي تسرع شوقا وخبا ، ويقوم الحساب أي يثبت ويتحقق كما يقال قامت السوق والحرب : أي وجدتا .

المعنى الجملي

بعد أن نصب سبحانه الأدلة على أن لا معبود سواه ، وأنه لا يجوز بحال أن يعبد غيره ، وطلب إلى رسوله أن يعجب من حال قومه إذ بدلوا نعمة الله كفرا وعبدوا الأوثان والأصنام .

ذكر هنا أن الأنبياء جميعا حثوا على ترك عبادة الأصنام؛ فأبراهيم صلوات الله عليه وهو أبوهم نعى على قومه عبادتها وطلب إلى الله أن يجنبه وبنيه ذلك ، فإنها كانت سببا في ضلال كثير من الناس ، وشكر الله على أن وهب له على كبره ولديه إسماعيل وإسحاق ، ثم ختم مقاله بأن يغفر له ولوالديه والمؤمنين ذنوبهم عند العرض والحساب.

الإيضاح

(وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا) أى واذا ذكر لقومك مذكرا لهم بأيام الله خير إبراهيم إذ قال : ربى المحسن إلىّ بإجابة دعائى اجعل مكة بلدا آمنا . وقد أجاب الله تعالى دعاءه فجعله حرما لا يسفك فيه دم ولا يظلم فيه أحد ولا يصاد صيده ولا يخلى خلاله كما قال : « أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مَّأْمِنًا وَيَتَخَفَتُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ » .

(واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام) أى وابعذنى وبنى من أن نعبد الأصنام ، أى ثبتنا على ما نحن عليه من التوحيد وملة الإسلام والبعد عن عبادة الأصنام .

وقد استجيب دعاؤه فى بعض بنيه دون بعض ولا ضير فى ذلك .

(رَبِّ إِنِّهِمْ أَضَلُّان كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ) أى يارب إن الأصنام أزلن كثيرا من الناس عن طريق الهدى وسبيل الحق حتى عبدوهن وكفروا بك .

(فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) أى فمن تبعنى على ما أنا

عليه من الإيمان بك ، وإخلاص العبادة لك والبعد عن عبادة الأوثان - فإنه مستقيم

بسنتى وجار على طريقى ، ومن خالف أمرى فلم يقبل منى ما دعوته إليه وأشرك بك

فإنك قادر على أن تغفر له وترحمه بالتوبة عليه وهدايته إلى الصراط المستقيم .

(رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْحَرَمِ) أى يارب

إني أسكنت بعض ذريتي وهم أولاد إسماعيل بواد غير ذي زرع وهو وادى مكة عند

بيتك الذى حرمت النهرض له والتمهون به وجعلت ما حوله حرما لمكانه .

(اربعها لقيموا الصلاة) أى إنما جعلته مجزماً لئلا يتمكن أهله من إقامة الصلاة

عنده ويعمره بذكرك وعبادتك .

(فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم) أى فاجعل قلوب بعض الناس محترقة

شوقاً إليهم .

(وارزقهم من الثمرات) أى وارزق ذريتي الذين أسكنتهم هناك من أنواع

الثمار بأن تجي إليهم ذلك من شاسع الأقطار ، وقد استجاب الله ذلك كما قال :

« أَوْ لَمْ تُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجَبِّي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا »

قال الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا فى كتابه الإسلام والطب الحديث : دعاء

سيدنا إبراهيم يفسر ما قلناه ، وهو أن الدعاء سنة طبيعية لا أكثر ولا أقل ، فالنبي

يدعوا ربه ليطلبهم الناس حج البيت ، فهو يستعين بسنة طبيعية ، وهى إلهام الخالق لنا

حج البيت مع أنه يعلم أن الله قادر على أن ينزل عليهم رزقاً من السماء ، ولكن النبي

ضرب لنا مثلاً فى طريق استعمال الدعاء وقيمتة ، فالدعاء لا يلقى سنة طبيعية ولا يأتى

بالمعجزات ، ولكن الداعى يطلب من الخالق الهداية إلى إحدى السنن الطبيعية

وسأضرب لك مثلاً بالنسبة للمريض وعلاجه ، فقد أخبرنى البعض أن من يطلب

الطبيب لا يستعين بالدعاء ، والحقيقة غير ذلك ، فالوالد الذى يدعو ربه لشفاء ولده ،

لا فائدة من دعائه إذا كان ولده قد مات أو إذا كان مرضه مميتاً حتماً ، ولكن

قد يكون المرض طرق علاج خاصة ، أو قد يشفى من نفسه فى ظروف خاصة ، فالدعاء

فى هذه الحال معناه إلهام المريض ومن حوله من طبيب وغيره استعمال الطريق المؤدى

إلى الشفاء ، والطبيب يحتاج دائماً إلى هذا الإلهام ، وكل من مرة يقف فى مفترق الطرق

ولا يدرى أية ناحية يسلك ، وكل طريق سنة طبيعية تؤدى إلى نتيجة خاصة ،

والدعاء هداية إلى السنة المؤدية إلى الشفاء ، وهكذا يكون الدعاء والتطبيب وكل

أعمال الإنسان يكمل بعضها بعضاً وليست متناقضة ، فدعاء سيدنا إبراهيم معناه أن

يلهم الناس بواسطة القوانين الطبيعية حج البيت ، وقد يقال ولكننا لا نشعر بإلهام

من عند الله ، وكل أفعالنا نتيجة مباشرة لتفكيرنا ، والشخص الذي يحج لا يشعر بإلهام أو شيء خفي ، ولكن الحقيقة أن أفعال الإنسان قد تكون نتيجة تفكيره واختياراته ويكون سبب حركاتها ظاهرا ؛ وقد تكون أفعاله غير منطبقة على تفكيره واختياراته ولكنه مع ذلك يندفع إلى العمل ، وكثيرا ما نشاهد أشخاصا لا يفكرون في الحج مدة طويلة ، ولكن فجأة وبدون سبب ظاهر يصممون على الحج وينفذون إرادتهم ، وهذا العمل ظاهره الاختيار طبعاً ولكنهم مدفوعون بقوة مسيطرة عليهم أشبه بالفريرة أو الوحي .

وقد أجاب الله إبراهيم إلى دعائه فألهم الناس الحج في آلاف السنين وإلى ماشاء الله ، لافي مدى حياته فحسب ؛ وفي هذا إظهار لقدرة الخالق وصدق وعده اه .
(لعلهم يشكرون) أى رجاء أن يشكروا تلك النعمة بإقامة الصلاة وأداء واجبات العبودية .

وفي هذا إيماء إلى أن تحصيل منافع الدنيا إنما هو ليستعان بها على أداء العبادات وتحصيل الطاعات ، وفي دعائه عليه السلام مراعاة للأدب والمحافظة على الضراعة وعرض الحاجة واجتلاب الرأفة ، ومن ثم من الله عليه بالقبول وإعطاء المستول ، ولا بدع في ذلك فهو خليل الرحمن وأبو الأنبياء جميعا .

(ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن) أى أنت تعلم ما نخفي قلوبنا حين سؤالك ما نسأل ، وما نعلن من دعائنا فنجير به .

(وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء) أى لا ما يخفى على الله شيء يكون في الأرض أو في السماء ، لأن ذلك كله ظاهر متجل له ، لأنه مدبره وخالقه فكيف يخفى عليه .

(الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحاق) أى الحمد لله الذى وهب لى وأنا آيس من الولد لكبر سنى — ولدين إسماعيل وإسحاق .
(إن ربى لسميع الدعاء) أى إن ربى لسميع دعائى الذى أدعوه به من قولى :

« أَجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ » وقد كان إبراهيم سألته الولد بقوله : « رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ » فلما استجاب الله دعاءه قال الحمد لله الخ .
(رب اجعلني مقيم الصلاة) أى رب اجعلنى مؤديا ما ألتزمتنى من فريضتك التى فرضتها على .

(ومن ذريتي) أى واجعل أيضا من ذريتي مقيمي الصلاة ، وقد خص الصلاة من بين فرائض الدين لأنها العنوان الذى يمتاز به المؤمن من غيره ، ولما لها من المزية العظمى فى تطهير القلوب بترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن .
(ربنا وتقبل دعاء) أى ربنا تقبل عبادتى كما جاء فى قوله : « وَأَعْتَزِلْكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي » .

وجاء فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الدعاء هو العبادة ثم قرأ : وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » .
(ربنا اغفر لى ولوالدى والمؤمنين يوم يقوم الحساب) أى اغفر لى ما فرط منى من الذنوب ولأبوى ، وقد روى عن الحسن أن أمه كانت مؤمنة : واستغفاره لأبيه كان عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه كما قال تعالى : « وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ » الآية ، والمؤمنين بك ممن تبعنى على الدين الذى أنا عليه فأطاعك فى أمرك ونهيك - يوم تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ، إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢) مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ، وَاقْتَدِرُكُمْ هَوَالَهُ (٤٣) وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَا أَيُّهُمْ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ

ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرَنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُحِبُّ دَعْوَتَكَ وَتَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوْلَمَ
تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (٤٤) وَسَكَنْتُمْ فِي
مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا
لَكُمْ الْأَمْثَالَ (٤٥) وَقَدْ مَكَرُوا مَكَرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكَرُهُمْ وَإِنْ كَانَ
مَكَرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِيفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ، إِنَّ
اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ
وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّبِينَ فِي
الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَّابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ وَتَعَشَىٰ وُجُوهُهُمْ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ
اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ
وَلِيُنذَرُوا بِهِ ، وَلِيَعْلَمُوا أَنَّهَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو
الْأَلْبَابِ (٥٢)

شرح المفردات

تَشَخُّصٌ : ترتفع ، مهطعين : مسرعين إلى الداعي ، مقنعي رءوسهم : أى رافعيها
مع الإقبال بأبصارهم إلى ما بين أيديهم من غير التفات إلى شيء ، لا يرتد : لا يرجع ،
هواء : خالية من العقل والفهم لفرط الحيرة والدهشة ، ويقال للجبان والأحمق قلبه
هواء : أى لا قوة ولا رأى فيه كما قال حسان يهجو أبا سفيان بن حرب :
ألا أبلغ أبا سفيان عني فأنت مجوفٌ نُحِبُّ هَوَاءَ

من زوال : أى من انتقال من دار الدنيا إلى دار أخرى للجزاء ، وضربنا لكم
الأمثال : أى بينا لكم أنهم مثلكم في الكفر واستحقاق العذاب ، عزيز : أى

غالب على أمره ينتقم من أعدائه لأوليائه ، وبرزوا : أى خرجوا من قبورهم ، مقرّنين أى مشدودين ، فى الأصفاذ : أى فى القيود واحدها صَفَدَ ، سرايلهم ، واحدها سربال : وهو التميمص ، والقطران : ذهن يتخلب من شجر الأبهل والعرعر والتوت كالزفت تدهن به الإبل إذا جربت . ويقال له الهناء ، وهو أسود اللون منين الريح تقول هنأت البعير أهنؤهُ إذا طليته بالهناء ، وتغشى وجوههم النار : أى تعلوها وتحيط بها ، بلاغ : كفاية فى العظة والتذكير .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه أن جزاء من بدلوا نعمة الله كفراً وجعلوا له الأنداد جهنم يصلونها وبئس المهاد ، وطلب إلى عباده المؤمنين مجاهدة النفس والهوى وإقامة فرائض الدين - ذكر هنا تسلية لرسوله وتهديدا للظالمين من أهل مكة أن تأخيرهم وتمتعهم بالحظوظ الدنيوية ليس بإهمال للعقوبة ولا لغفلة عن حالهم ، وإنما كان الحكمة اقتضت ذلك وهم مرصدون ليوم شديد الهول له من الأوصاف ما يُبَيِّنُ بعدُ ، وعليك أيها الرسول أن تنذر الناس بقرب حلوله ، وأنهم فى ذلك اليوم سيطلبون المرد إلى الدنيا ليجيبوا دعوة الداعى ، وهيئات هيئات .

صاح هل زَيْتٌ أَوْ سَمِعْتِ بِرَاعٍ رَدَّ فى الضرع ما قرى فى الحلاب وقد كان لكم معتبر فى تلك المساكن التى تسكنونها فإنها كانت اقوم مثلكم كفروا بأنعم الله فأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

ألا إن وعد الله لرسوله لا يخلف وهو ناصرهم وخاذل أعدائه كما قال : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا » وقال : « كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي » ومحاسبهم فى يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات ، يوم يخرجون من قبورهم للحساب أمام الواحد القهار ، وترى حال الجرمين يجبل عن الوصف .

وهذا الذى قصصته عليكم تبليغ وإنذار ليتذكر به ذوو العقول الراجحة وليعلموا أن الله واحد لا شريك له .

الايضاح

(ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون) تقدم أن مثل هذا الخطاب من وادى قولهم : (إياك أعنى واسمعى يا جاره) فهو فى صورته للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته ، وفيه تسلية للمؤمنين وتهديد للظالمين بأن الله محصى أعمالهم ومحيط بها ، وسيجزئهم وصفهم فى الحين الذى سبق فى علمه ، وأن عقابهم لأبدآت ، فتركه بمنزلة حسبانته تعالى غافلا عن أعمالهم ، إذ العلم بذلك مستوجب لعقابهم لا محالة . ثم أوعدهم حلول يوم يحاسبون فيه على أعمالهم وفيه من الهول ما يحير اللب ، ويدهش العقل فقال :

(إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار) أى إنما يمهلهم ويمتعمهم بكثير من لذات الحياة ولا يعجل عقوبتهم ، ليوم شديد الهول ترتفع فيه أبصار أهل الموقف وتبقى مفتوحة لا تطرف من الفزع والاضطراب . (مهطعين) أى يأتون مسرعين إلى الداعى بالذلة والاستكانة كما يسرع الأسير والخائف .

(مقنعي رؤوسهم) أى رافعيها مع دوام النظر من غير التفات إلى شىء . (لا يرتد إليهم طرفهم) أى لا يرجع إليهم تحريك أجنانهم كما كانوا يفعلون فى الدنيا فى كل لحظة ، بل تبقى أعينهم مفتوحة لا تطرف من شدة الفزع والخوف . (وأقنعتهم هواء) أى إنها مضطربة تجيش فى صدورهم ، تجىء وتذهب ولا تستقر فى مكان حتى تبلغ الحفاجر ، لشدة ما يرون من هول موقف الحساب . ثم ذكر مقاتلتهم حين يرون هول الموقف وما فيه من العذاب فقال :

(وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل

قريب نجب دعوتك وتنبع الرسل) أي خوف أيها الرسول القوم الظالمين ، وازجرهم عما هم عليه من الظلم شفقة بهم - هول يوم العذاب وشدته حين يقولون من الملح والجزع : ربنا أرجعنا إلى الدنيا وأمهلنا أمداً قريباً نجب فيه دعوة الرسل إلى توحيدك وإخلاص العبادة لك بعد أن جحدنا ذلك .

ثم رد عليهم مقالتهم بقوله :

(أولم تكونوا أقمستم من قبل مالكم من زوال) أي وحينئذ يقال لهم على سبيل التوبيخ والتقريع : ألم تحلفوا في الدنيا إنكم إذا متم لا تخرجون لبعث ولا حساب كما حكي الله عنهم : « وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ » فذوقوا وبال أمركم .

أخرج البيهقي عن محمد بن كعب القرظي أنه قال : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله تعالى في أربع منها ، فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبداً يقولون : « رَبَّنَا آمَنَّا آثَمَتَيْنِ وَأَخْيَبَتَيْنِ فَأَعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا ، فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ؟ » فيجيبهم الله عز وجل : « ذَلِكَكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ، وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تَوَمَّنُوا ، فَأَلْحِكُمْ اللَّهُ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ » ثم يقولون : « رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » فيجيبهم جل شأنه : « فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا » الآية ، ثم يقولون : « رَبَّنَا أَخْرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَجِبْ دَعْوَتِكَ وَتَبِعِ الرُّسُلَ » فيجيبهم تبارك وتعالى : « أَوْلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ » الآية . ثم يقولون : « رَبَّنَا أَخْرَجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ » فيجيبهم جل جلاله : « أَوْلَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمْ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ » فيقولون : « رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ » فيجيبهم جل وعلا : « أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ » فلا يتكلمون بعدها إن هو إلا زفير وشهيق وحينئذ ينقطع رجاؤهم ويقبل بعضهم ينبح في وجه بعض

وتطبق عليهم جهنم . اللهم إنا نعوذ بك من غضبك ونلوذ بكنتفك من عذابك ونسألك التوفيق للعمل الصالح في يومنا غدنا ، والتقرب إليك بما يرضيك قبل أن يخرج الأمر من يدنا اه .

(وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال) أى وأقمتم فيها واطمأنتم وسرتم سيرة من قبلكم فى الظلم والفساد لم تفكروا فيما سمعتم من أخبار من سكنوها قبلكم ولم تعتبروا بأيام الله فيهم وأنه أهلكتهم بظلمهم ، وأنكم إن سرتم سيرتهم حاق بكم مثل ما حاق بهم ، بعد أن تبين لكم ما فعلنا بهم من الإهلاك والعقوبة بماينة آثارهم وتواتر أخبارهم ، ومثلنا لكم فيما كنتم مقيمين عليه من الشرك الأشباه والنظائر ، فلم ترعوا ولم تتوبوا من كفركم .

الآن تسألون التأخير للتوبة حين نزل بكم من العذاب ما نزل ؟ فهيات

هيات ، قد فات ما فات ولن يكون ذلك حتى يلج الجمل فى سم الخياط .

ثم بين أن حالهم كحال من سبقهم حذو القذة بالقذة فقال :

(وقد مكروا مكروم) أى وقد مكروا فى إبطال الحق وتقرير الباطل مكروم

الذى استفرغوا فيه كل جهدهم وأحكوا أسبابه حتى لم يبق فى قوس الحق منزع .

ثم ذكر بعدئذ أن الله عليم بكل ما دبروا فقال :

(وعند الله مكروم) أى ومكتوب عند الله مكروم وهو لا محالة مجازيهم عليه ،

ومعذبتهم من حيث لا يشعرون .

والخلاصة — عند الله جزاؤهم وما هو أعظم منه ، فرأيهم آفن إذ هم سلكوا

طريقا كان ينبغي البعد عنها بعد أن استبان فسادها .

ثم ذكر أن عاقبة مكروم الخسران والبوار فقال :

(وإن كان مكروم لتزول منه الجبال) أى وما كان مكروم لتزول به آيات الله

وشرائعه ومعجزاته الظاهرة على أيدي الرسل التى هى كالجبال فى الرسوخ والثبات .

والخلاصة — تحقير شأن مكرهم وأنه ما كان لتزول منه الآيات والنبوءات الثابتة ثبوت الجبال ، فليس بمزبل شيئا منها مهما قوى وكان غاية في المثانة والعظم .

(فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله) هذا الخطاب لرسوله صلى الله عليه وسلم على تهيج سالفه ، والمقصود منه تثبيت أمتة على تقمهم بوعده ربهم وتيقنهم بإنجازة وتعذيب الظالمين وأنه منزل سخطه بمن كذبه وحجده نبوته .

(إن الله عزيز ذو انتقام) أى غالب على أمره لا يمتنع منه من أراد عقوبته ، وقادر على كل من طلبه لا يفوته بالهرب منه ، وهو ذو انتقام ممن كفر برسله وكذبهم وحجده نبوتهم وأشرك به واتخذ معه إلهًا غيره .

ثم ذكر زمان الانتقام فقال :

(يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات) أى إنه تعالى ذو انتقام يوم تبدل الأرض غير الأرض بأن تتطير هذه الأرض كالهباء وتصير كالدهان المنتشر ثم ترجع أرضا أخرى بعد ذلك ، وتبدل السماوات بانتثار كواكبها وانقطارها وتكوير شمسها وخسوف قرها .

قال ابن عباس رضى الله عنهما هى تلك الأرض إلا أنها تغيرت فى صفاتها ، فتسير عن الأرض جبالها وتفجر بحارها وتسوى فلا يرى فيها عوج ولا أمت ، وروى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يبدل الله الأرض غير الأرض فيسطها ويمدها مد الأديم العكاظى فلا ترى فيها عوجا ولا أمتا » .

وهذه الآية الكريمة من معجزات القرآن التى أيدها العلم الحديث وانطبقت عليه أشد الانطباق ، فعلماء الفلك الآن يقولون إن الأرض والشمس وسائر الكواكب السيارة كانت فيما مضى كرة نارية حارة طائرة فى الفضاء ودارت على محورها ملايين السنين ، ثم تكونت منها الشمس ، وبعد ملايين أخرى فصلت منها السيارات ومنها الأرض ، وبعد مئات الألوف انفصلت عنها الأقمار .

ولاشك أن هذه الحال بينهما استعداد كرة أخرى: أى إن الأرض والكواكب والشمس بعد ملايين السنين ستتحل مرة أخرى ويذوب ذلك الموجود كله ويتطاير في الفضاء حقبة من الزمن ، ثم تعاد كرة أخرى وتكون شمس غير هذه الشمس وأرض غير هذه الأرض وسماوات غير هذه السماوات .

روى مسلم عن عائشة قالت : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله : يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات - فأين يكون الناس يومئذ يا رسول الله ؟ فقال : على الصراط » .

وروى عن أبي بن كعب أنه قال فى معنى التبديل : إن الأرض تصير نيرانا . وعلى الجملة فقد اتفق العلم الحديث مع الآيات والأحاديث على أن الأرض تصير نارا وأن الناس لا يكونون عليها ، بل هناك ما هو أعجب وهو ما روى عن ابن مسعود وأنس رضى الله عنهما من قولهما : يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطئ عليها أحد خطيئة ، ولا بدع فى أن تكون أرضا جديدة لم يسكنها أحد ، بل تخلق خلقا جديدا . (وبرزوا لله الواحد القهار) أى وخرجوا من قبورهم لحكم الله والوقوف بين يدى الواحد القهار ، فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار سواه .

وفى هذا من تهويل الخطب ما لا يخفى ، لأنهم إذا وقفوا عند ملك عظيم قهار لا يشاركه سواه فى سلطانه كانوا على خطر إذ لا منازع له ولا مغيب سواه .

وبعد أن وصف سبحانه نفسه بكونه قهارا - بين عجز الجرمين وذلتهم فقال : (وترى الجرمين يومئذ مقرنين فى الأصفهاد . سرايلهم من قطران وتغشى وجوههم النار) وصفهم سبحانه بجملة أمور :

(١) إنه يقرن بعضهم إلى بعض فى القيود ويضم كل إلى مشاركته فى كفره وعمله كما قال تعالى : « وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ » وقال : « فَكُتِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ » وفى الحديث : « أنت مع من أحببت » .

(٢) إن قضمهم التي يلبسونها من قطران ، والمراد من ذلك أن جلود أهل النار تظلي بالقطران حتى يعود طلاؤها كالسراويل ، ليجتمع عليهم أربعة ألوان من العذاب : لذع القطران وحرقته ، وإسراع اشتعال النار في الجلود ، واللون الأسود الموحش ، وتفن الرياح .

(٣) إن وجوههم تلعوها النار وتحيط بها وتسعر أجسامهم المسرولة بالقطران ، وإنما ذكرت الوجود مع أن ذلك يكون لسائر الجسم - لكونها أعز الأعضاء الظاهرة وأشرفها .

ونظير الآية قوله : « أَفَمَنْ يَتَّبِعِ بَوَجهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » وقوله : « يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ » .

(ايجزى الله كل نفس ما كسبت) أى فعل الله ذلك بهم جزاء بما كسبوا فى الدنيا من الآثام جزاء وفاقا ، كى يثيب كل نفس بما كسبت من خير أو شر فيجزى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته .

(إن الله سريع الحساب) فيحاسب جميع العباد فى أسرع من لمح البصر ، ولا يشغله حساب عن حساب ، كما لا يشغله رزق زيد عن رزق عمرو .

(هذا بلاغ للناس) أى هذا القرآن الكريم بلاغ للناس أبلغ الله به إليهم فى الحجة عليهم وأعذر إليهم بما أنزل فيه من مواظبه وعبره .

(وليندروا به) عقاب الله ويحذروا به تقمته .

(وليعلموا أنما هو إله واحد) أى وليعلموا بما احتج به عليهم من الحجج فيه

أنما هو إله واحد لا آلهة شتى كما يقول المشركون بالله ، وهو الذى سخر لهم الشمس والقمر والليل والنهار وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لهم .

(وليذكر أولو الألباب) أى وليتذكروا ويتعظوا بما احتج الله به من الحجج

فيترجروا عن أن يجعلوا معه إلهًا غيره ، وفق تخصيص التذكار بأولى الأبواب إعلاء شأنهم ، وإيماء إلى أنهم هم أهل النظر والاعتبار .
وجملة القول إنه سبحانه جعل لهذا البلاغ ثلاث فوائد هي الحكمة من إنزال الكتب والرسول :

- (١) إن الرسل يخوفون الناس عقاب الله وينذرونهم بأسمه ليكملهم بمعرفة ربهم وتقواه والعمل على طاعته .
- (٢) إن الناس ترتقى قوتهم النظرية إلى منتهى كلها بتوحيد الخالق والاعتراف بأنه مدبر الكون والمسيطر عليه .
- (٣) إنهم يستصلحون قوتهم العملية بتدريجهم بلباس التقوى .

فذلكة لمحتويات السورة

- (١) هداية الناس إلى معرفة ربهم الخالق للسموات والأرض .
- (٢) ذم الكافرين الذين يستحبون الدنيا ويصدون عن الدين القويم .
- (٣) بيان أن الرسل إنما يرسلون بلغات أقوامهم ليسهل عليهم فهم الأوامر والنواهي .
- (٤) التذكير بأيام الله ببيان ما حدث للرسول مع أقوامهم ليكون في ذلك تسلية لرسوله ، وما هدد به الأمم رسوله من الإخراج والنفي من الديار .
- (٥) وعيد الكافرين على كفرهم وذكر ما يلقونه من العذاب ، وضرب الأمثلة لذلك .
- (٦) وعد المؤمنين بجنات تجري من تحتها الأنهار ، وضرب المثل لذلك .
- (٧) دعوة إبراهيم ربه أن يجعله وبنيه عبادة الأصنام التي أضلت كثيرا من الناس ، ثم شكره على ما وهبه من الأولاد على كبر سنه ، ثم طلبه المغفرة منه له ولوالديه وللمؤمنين يوم العرض والحساب .

(٨) بيان أن تأخير العذاب عن المجرمين ليوم معلوم ، إنما كان لحكمة اقتضت ذلك ، وحينئذ يرون من الذلة والصغار وسوء العذاب ما يجلب عنه الوصف .
تم تفسير هذا الجزء بجلوان من أرباض القاهرة في صبيحة يوم الأحد لثلاثين من شهر ربيع الثاني من سنة ثلاث وستين وثلاثمائة وألف من الهجرة النبوية .
والحمد لله الذي بنعمته تم الصالحات ، وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه الكرام .

فهرست

أهم المباحث العامة التي في هذا الجزء

الصفحة	المبحث
٤	تولية يوسف رئيسا لحكومة مصر .
٥	اللغة التي كلم بها يوسف ملك مصر .
٦	الجهل وسوء تدبير الثروة أضاعا كثيرا من الممالك الشرقية في القرون الأخيرة .
٧	جىء بيوسف مملوكا فأصبح مالكا ذا نفوذ .
٩	لما ولى يوسف الوزارة ساس البلاد سياسة رشيدة وقت البلاد شر المجاعات .
١١	في سفر التكوين أنه استنبأهم عن أنفسهم متذكرا لهم .
١٢	طلب من إخوته إحضار أخيه الشقيق .
١٣	ممانعة الأب في إرسال الأخ ثم الاذن لهم بذلك .
١٥	أخذة العهد والميثاق عليهم .
١٩	مقابلتهم ليوسف بعد إحضار الأخ وحسن معاملته لهم .
٢٠	سرقة الصواع .
٢١	قضت الحكمة الإلهية عقاب إخوة يوسف بما فرطوا في يوسف .
٢٣	أصبح ما قيل في سرقة يوسف .
٢٦	تشاورهم فيما يفعلون عند رجوعهم إلى أبيهم .
٢٧	لم يصدقهم يعقوب في المعاذير التي أبدوها في عدم رجوع الأخ معهم .
٢٨	سبب ما أصاب يعقوب من ابيضاض عينيه .
٢٩	نصيحة أولاد يعقوب له على حزنه الممض .
٣٠	كان لدى يعقوب إلهام بأن يوسف لا يزال حيا .
٣٤	لم يعرف يوسف إخوته بنفسه بادىء بدء ؟ .

الصفحة	المبحث
٣٥	تمثل النبي صلى الله عليه وسلم حين فتح مكة بقول يوسف لا تثريب عليكم اليوم.
٣٩	كيف شم يعقوب رائحة يوسف؟
٤١	تأويل رؤيا يوسف من قبل .
٤٣	خرّ يعقوب وأولاده سجدا ليوسف .
٤٥	طلب يوسف من ربه حسن الخاتمة.
٤٦	في ذكر قصص يوسف إثبات لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم .
٥٠	التوسل إلى الله بصالح عباده .
٥١	الحكمة في إبهام وقت الساعة .
٥٢	الدين الإسلامي دين حجة وبرهان لادين تقليد وتسليم .
٥٣	أرسل الله من البشر رسلا من قبل محمد فكيف يعجبون من رسالته عليه السلام؟ .
٥٥	نصر الله رسله ينزل حين ضيق الحال وانتظار الفرج .
٥٦	قصص يوسف عبرة لذوى البصائر .
٦١	اهتدى المسلمون بهدى القرآن فامتسكوا أكثر العمور .
٦٣	الأدلة على وجود الله ووحدانيته وقدرته .
٦٧	تفكروا في آلاء الله ولا تنفكروا في الله .
٧٠	إنكار المشركين للبعث .
٧٢	طلبهم من النبي صلى الله عليه وسلم آية غير القرآن .
٧٣	الرسول نذير لاجبار مسيطر .
٧٥	أقصى المدة التي يبقى فيها الجنين حيا في الرحم .
٧٥	في قوله عالم الغيب والشهادة دليل على وجود عوالم لا ترى بالعين المجردة كالجراثيم التي أثبتها العلم حديثا .

الصفحة	المبحث
٧٧	المرء بين أربعة أملاك بالليل وأربعة بالنهار .
٧٧	ليس أمر الحفظة بيبعد من العقل بعد كشف العلم أن كثيرا من الأعمال العامة يمكن إحصاؤها .
٧٨	الظلم مؤذن بخراب العمران .
٨١	وفد عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وما كان من أمرهما .
٨٢	كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرعد تغير لونه حتى يعرف ذلك في وجهه .
٨٥	تأنيب المشركين على اتخاذ الشركاء .
٨٦	من عنده مسكة من عقل لا يعبد ما لا يضر ولا ينفع .
٨٨	مثل الحق والباطل .
٩٥	كان رسول الله يأتى المتأخر فيقول: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار .
٩٦	جزاء ناقضى العيد والميثاق .
٩٨	لا تعلق لبسطة الرزق بإيمان ولا كفر .
٩٩	طلبهم من الرسول آية غير القرآن .
١٠٢	ليس محمد ببدع من الرسل ولا قومه بأول المكذبين .
١٠٥	ليس ما اقترحوه من الآيات مما تقتضيه الحكمة .
١٠٦	اصبر أيها الرسول كما صبر أولو العزم من الرسل .
١٠٨	ليس هناك من دليل عقلى ولا نقلى على وجود الشركاء .
١١٢	مهام الرسالة .
١١٣	إنكار اليهود على النبي صلى الله عليه وسلم كثرة الزوجات مع ذكر الحكمة في ذلك .
١١٤	لاتأتى المعجزات إلا على مقتضى الحكمة .
١١٤	لكل كتاب أجل لا يعدوه .

المبحث	الصفحة
مثل الدنيا مثل مصنع رتبت أعماله على نهج معين لا تغيير فيه ولا تبديل .	١١٥
على الرسول البلاغ وعلى الله الحساب .	١١٧
لامعقب لحكم الله .	١١٨
الله هو خالق الأكوان والمنفرد بالعظمة والسلطان .	١٢٤
الإنسان يجب أن يكون في هذه الحياة بين صبر وشكر .	١٢٩
كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه .	١٣٣
ما أعد الله لعباده السعداء من الثواب .	١٤٣
محاورة بين الشيطان وأتباعه .	١٤٥
مآل المتقين جنات النعيم .	١٤٦
مثل الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة .	١٤٧
فائدة ضرب الأمثال .	١٤٩
سؤال الملوك في القبر .	١٥٠
الأمر بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة .	١٥٤
نعم الله على عباده .	١٥٦
وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها .	١٥٧
دعاء إبراهيم بحمل مكة بلدنا آمناً .	١٥٨
الدعاء سنة طبيعية .	١٦٠
إجابة دعاء إبراهيم .	١٦١
سيطلب المجرمون العودة إلى الدنيا وهيئات هيئات .	١٦٤
وصف حال المجرمين في ذلك اليوم .	١٦٥
حال مشركي قومك كحال من سبقهم .	١٦٧
يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات .	١٦٨
سيكون المجرمون مقرنين في الأصفاد والسلاسل .	١٦٩